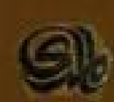


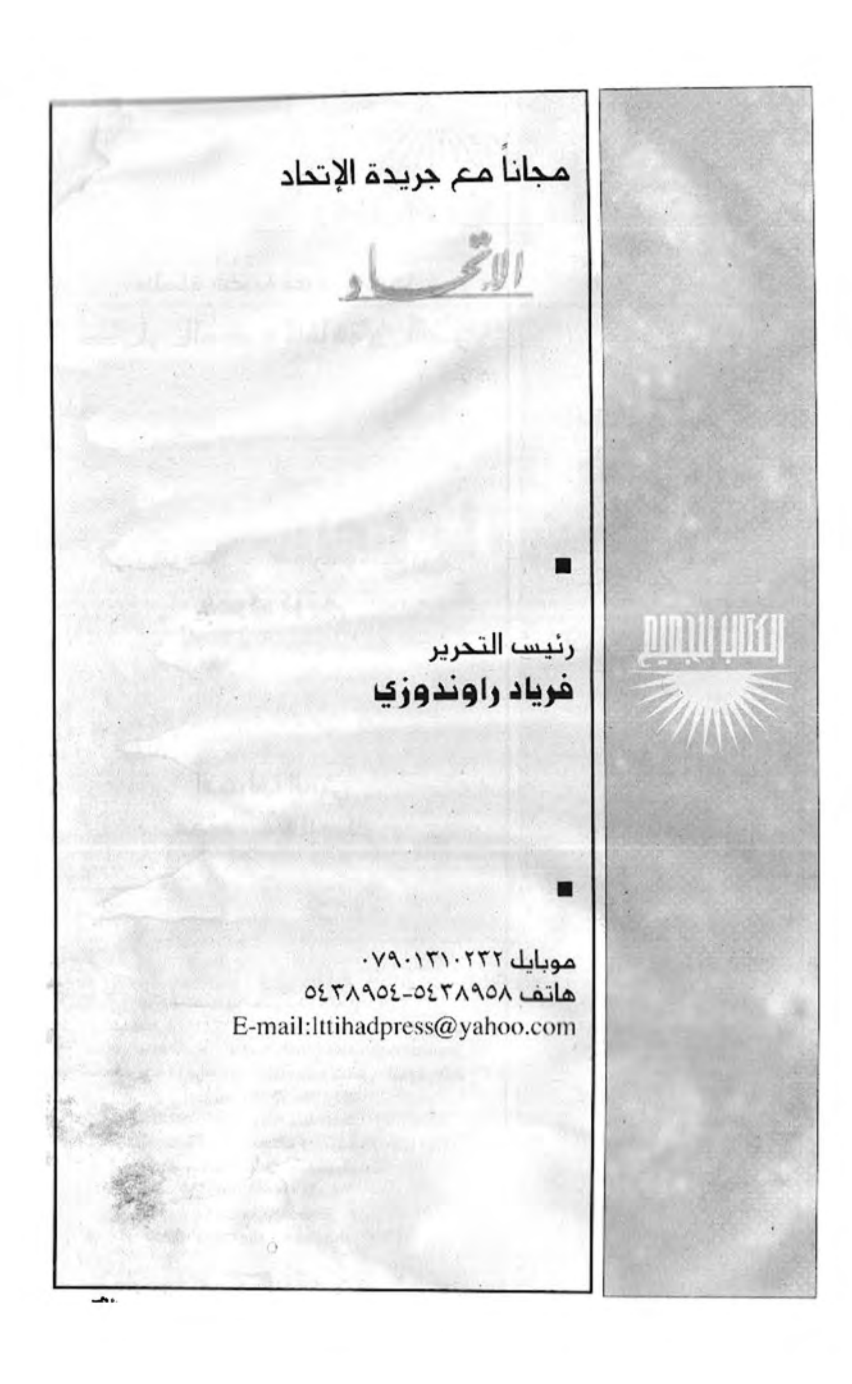




مارون عبود







مجاناً مع جريدة الإتحاد

رئيس التحرير
فرياد راوندوزي

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢
هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤
E-mail:Ittihadpress@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٥٥

مارون عبود

أمين الريحاني

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (الاتحاد)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٩

الطبعة الأولى
١٩٥٢

إلى الذي قال: قل كلمتك وامش.
البساطة روح الفن، والانسجام روح الجمال.
العمال، عبيد وسادة، هم مطبخ الجمهورية، بل معدتها الهاضمة.
إخواني العرب: ساووا بين الشعوب العربية كلها، من حلب إلى عدن ومن العريش إلى خافقين، وافتحوا مكة للعالم أجمع، وعلموا وحرروا المرأة.
إلى غوستاف له بون الشرق
إلى روح فيلسوف الفريكة المخلص لإنسانيته أهدي هذا الكتاب

عين كفاع ١٩٥٢/٩/٣٠

مارون عبود

فيلسوف الفريكة

١٨٧٦ - ١٩٤٠

نشأته، وعبقريته، وشهرته

ما ألفت السير على الطرق المعبدة لأترجم لأمين الريحاني كما اعتاد الكتاب أن يفعلوا، فأمين بن فارس الريحاني ولد في قرية تدعى الفريكة، وقد أسماها حين شب وكتب في واديها مقاله الرائع الذي مطلعه: «وادي الفريكة مهيب و جميل غير أن هيبته أكثر من جماله، وهو عميق ملتو ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه في نهر الكلب».

في بيت لبناني، طعماً ولوناً، نشأ أمين، وذلك البيت القائم على كتف كنيسة مار مارون، الناظر من عل إلى الوادي المتجهم وصخوره المنتصبة كالجبابرة الواقفين على السلاح، قد أمسى بفضل نبوغ صاحبه مزاراً للناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم. وضع أمين بعد عودته الثانية من رحلته الأميركية سجلاً في صحن ذلك البيت فانطوى على الآلاف من أسماء الزائرين، المعجبين بأدب الريحاني الثائر المتحرر.

نشأ أمين نشأة طائفية، وكان في صغره لا يهدأ ولا يستقر. ركب بغلاً في الرابعة من عمره فرمحه ذلك البغل اللعين ولكنه نجا وسلم، وبعد ستين عاماً مرت على حادثة البغل ركب الدراجة فسقط في قناة الطريق، ولفظ روحه بعد بضعة عشر يوماً.

تحت الزيتونة تلمذ أولاً لخوري الضيعة خادم كنيسة مار مارون وخدم له القداس وقرأ الرسائل والسنكسار.. وبعد عامين انتقل إلى مدرسة حديثة أنشأها نعوم المكرزل فدرس فيها مبادئ العربية والفرنسية.

واستعاد صحته بعد رمحة البغل فنذرته والدته لقديس كفيفان - الحرديني - والبسته الطوق الفضي المبارك بوضعه على ضريح القديس، ثم أزارته والدته مقام الطوباوي الجديد «وهو يرفل في قمباز مخطط معصفر، وعلى رأسه طربوش تعلوه كوفية بيضاء» (قلب لبنان ٣٥١).

وحوالي السنة الثانية عشرة من عمره - كما جاء في مقدمة ملوك العرب - أو العاشرة، كما كتب في مقدمة - المغرب الأقصى - هاجر الريحاني إلى أميركا مرافقاً عمه عبده وأستاذه نعوم المكرزل. وفي نيويورك درس الإنجليزية عاماً واحداً، ثم أخذ ينصرف إلى محل عمه وأبيه نهاراً، وإلى الدرس ليلاً، ولم تعجبه التجارة فعاف دفاتر المحل وانضم إلى جوقة تمثيلية. وأخفقت الجوقة ولكن أميناً الذي أخفق في التمثيل لم يخفق في تمثل الثقافة الإنكليزية فدخل كلية الحقوق. ثم ولاها ظهره ليكون محامياً عن أمته غير مأجور، ووكيلاً مسخراً عن الرأي العام، وكاتباً جباراً عنيداً يقول كلمته ويمشي.

وساءت صحته بعد سنوات فعاد إلى لبنان، فكان معلماً للإنكليزية في مدرسة قرنة شهوان، جارة الفريكة، وهناك تمكن من العربية ما أمكن، وعرف الأدب العربي وشعره، ووقعت الطيور على أشكالها، فعرف أبا العلاء المعري الذي ترجم بعض لزومياته بلغة شكسبير، فانفتحت بوجهه أبواب الشهرة في الشرق والغرب. ومضى يكتب بالقلم الإنجليزي فاحتل مقاماً رفيعاً بين أدبائه، وكما توج فولتير من قبل توج الريحاني بإكليل من الغار في حفلة شائقة أقامها على شرفه نادي الثريا الأميركاني، كما أنبأنا سليم سركيس في مجلته المعروفة باسمه، قال: لم أحضر حتى الآن حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والأبدان فهذه لا يدعى إليها إلا أصحاب التيجان ومن كان على طريقتهم.

على أنني وفقت إلى حضور حفلة تتويج أحد ملوك البيان، أريد به أمين الريحاني الكاتب البليغ والشاعر المجيد، صاحب المؤلفات الراقية في اللغتين العربية والإنكليزية.

تلك حفلة أقامها نفر من أمراء الشعر والنثر الأميركان في مدينة نيويورك، تكريماً لوطنينا أمين الريحاني على أثر ما تبينوه في مؤلفاته من الأدب الجم، وذلك على أثر انتشار كتابه «اللزوميات» باللغة الإنكليزية.

وبعد أن وصف سليم سركيس ما في المأدبة من تأنق وإسراف أميركيين، وما

ألقي وأنشد من نثر وشعر، قال: «ومثلت لنا سيدة أميركية ـ لا أذكر اسمها ـ دورا غريباً عجيباً لم أسمع نظيره من قبل، ولا سمعت مثله حتى الآن. ذلك أنها وقفت وأخذت تصفر بفمها صفيراً مثلت لنا فيه معركة حربية، من ابتداء الموسيقى العسكرية إلى زحف الجيش، إلى القتال فأصوات المدافع فالبنادق، فأنين الجرحى، إلى آخر ما هناك مما حير العقول. ولما فرغ الفضلاء من أقوالهم دعي أمين الريحاني إلى منبر خاص أقيم هناك، وألقى الرئيس ـ رئيس نادي الثريا الأميركي ـ خطاب الثناء والإطراء والإعجاب، ثم تناول الإكليل وتوج به الأمين».

ومشى أمين يضرب في دنيا الشهرة، فبرز في اللسانين الإنكليزي والعربي فأمسى بعد الجهاد ذلك الأديب العالمي، فذكر اسمه في دليل مشاهير كتّاب أميركا وكندا (سنة ١٩٣٠ ـ ٣١ ص ١٨٧). وفي دليل مشاهير الأدباء المطبوع في إنكلترا (صفحة ٣٦٦) حرف الراء).

فبعد المجون الذي خاض عبابه أمين الممثل الخائب، ترصن الريحاني وأمسى تلك الشخصية التي احترمها ملوك عصره في كل قارة من قارات الأرض، فكانت تقام له الحفلات التكريمية في جميع القارات حيث تحل ركابه، وحسبك أن تقول في أسلوبه الإنكليزي الرفيع جريدة بوستون هرالد: لقد تبوأ الرأس الشرقي مقعده في الأدب الإنكليزي بظهور كتاب «خالد». أما جريدة نيويورك بوست فقالت: «إن الأمين الريحاني منحة سامية من جمال اللغة.»

وقضى أمين حياته لا يستقر، فإذا ملَّ الشرق غرَّب، وإذا سئم الغرب شرَّق، وهكذا دواليك إلى أن منَّ الله عليه بالموت في البقعة التي أحبها، واستراح جثمانه في الرابع عشر من أيلول عام ١٩٤٠ من جهاده، ونام على كتف الوادي الذي أحبه نومة الأبد.

تآليفه:

كثيرة ستسمع ببعضها مما قيل عنها حين ظهرت في عالم الأدب الرفيع، وتتعرف على بعضها الآخر في الفصول التي ستقرؤها، ولكنك لا تظفر باللذة كاملة إلا إذا قرأتها كلها.

الكاتب الشاعر الإنكليزي

كتب أمين، أولاً بلغة شكسبير فأسمع الأميركان والإنجليز صوتاً شرقيّاً، فأصغوا إليه واسترعى انتباههم. ولما كنت لا أستطيع تقدير قيمته الإنكلوميركية فأي بأس عليَّ إذا استعنت بأقلام القوم الذين يزنون الذهب «بالبنس»؟! فاقرأ هذه الجزازات التي جمعتها لي ولك، أيها القارئ، من هنا وهناك وهنالك.

اللزوميات:

عندما انتشرت ترجمة الريحاني للرباعيات المعرّية إلى اللغة الإنكليزية نوهت بها الجرائد الأميركية بين مقرظة ومنتقدة. وطبعت الترجمة في إنكلترة أيضاً وقرظتها الجرائد الإنكليزية وانتقدتها أكثر من الاميركية، فقال فيها أدوين ماركهام وهو من كبار شعراء أميركا: «ولأمين الريحاني خاطر شريف في الحياة، وسهولة ورقة في التعبير.»

وقال أيضاً: «أبو العلاء شاعر حقيقي (مبدع) وله فلسفة أسمى وأنبل من فلسفة عمر الخيام، وفي ترجمة الريحاني لمنتخباته مزايا شعرية نادرة».

وقال كليتون سكولارد: «لو كان لي مجثم في حديقة تزهو فيها زهور دمشق فما كان أسعدني أن أقضي سويعات العصر والغروب متصفحاً اللزوميات، ترجمة الريحاني».

خالد:

قصة فلسفية مزينة ببعض الرسوم التي جادت بها ريشة جبران خليل جبران. تناول الريحاني في هذه القصة حياة بطلها - خالد - بالتحليل والدرس، فنقد بلسانه سيئات وحسنات الشرق والغرب. فوصفت وصفاً دقيقاً حافلاً بالسخر والتهكم الريحانيين، بلغة إنكليزية رفيعة يحسده عليها كتاب الإنكليز أنفسهم.

قالت مجلة «ريفيو أوف ريفيوز» في كتاب خالد:

«هذه أول مرة يظهر فيها كتاب لأجنبي يتكلم فيه عن الأميركان بسخرية ناعمة. إن كتاب خالد يعد من الكتب الممتازة في الأدب الإنجليزي.»

وكتب ريتشارد لي كالياني أحد شعراء أميركا المعروفين ما يلي:

«إنها المرة الأولى التي أقع فيها على كتاب قيم ومغر في حياتي. فكتاب خالد هو كتاب عاشه المؤلف ثم كتبه، وفي هذه الحالة تقع قيمة الكتاب في كامل معرفته»

وقال في مناسبة أخرى: «هذا أصدق كتاب رأيته وأوفرها تملكاً للخواطر».

- وقالت جريدة الأخبار بمصر في ١٤ كانون الثاني سنة ١٩١٢:

«لعل الريحاني أبرع سوري كتب باللغة الإنكليزية. والريحاني في كتاب خالد شديد الإعجاب بالأمة الأميركية ويزعم أنها ستسود على الأقطار يوماً، وأن أفرادها سيصبحون في الزمن القادم بمثابة الآلهة السائدين على طوائف الأمس بقوة علمهم وسمو مداركهم بالرغم من انتقاده القاسي لعاداتهم ولملكة التكالب على المال»

أناشيد الصوفية:

وكتب أحد أدباء الإنكليز عن ديوان الريحاني «**أناشيد الصوفية**» فقال:

«إنه جامع بين عظمة آثار الشرق وجمال معاني الغرب».

جادة الرؤيا:

عندما ظهر هذا الكتاب كتبت النيويورك تايمز عنه مايلي: «في هذا الكتاب جمع الريحاني مقالاته الاجتماعية السياسية العربية في الشرق والغرب. وللريحاني جمال فريد في النثر. وفي هذا الكتاب تتبين مقدرته الإنكليزية وطريقته الجميلة الخاصة، تلك الطريقة الجميلة الخاصة بمسحتها الشرقية الممتازة، وبسخريتها الأميركية الرفيعة».

أنشودة الصوفيين:

وفي هذا الديوان قالت التايمز أيضاً: «إن الريحاني شاعر عميق ذو خيال خصب ومقدرة شعرية عالية. وإن شعره يزداد جمالاً في صوره الشرقية البديعة»

ملوك العرب:

كتبت عنه جريدة روما الإيطالية حين ظهر بالإنكليزية واصفة أولاً فصول الكتاب والطريقة التي كتب بها ثم قالت: نرى كل ذلك أمامنا ليس فقط ككلام مموه بعبارات جميلة بل كلوحة حية صنعتها يد أشهر مصورينا العظام.

وقال الأستاذ: ا.س.يهودا المستشرق الألماني في كتاب أرسله إلى الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف:

«قرأت كتاب ملوك العرب، بكل اعتناء، ولم أر كتاباً أكمل وأحسن وأنفع وأبدع منه، وهو يفوق كل ما كتب حتى الآن في هذا الموضوع، وقد لفت نظر كثيرين من رفقائي منذ طبع فاستحسنوه مثلي، حتى إن أحد الأساتذة في كلية هيدلبرغ يقرؤه الآن مع تلاميذه المستشرقين»

ابن سعود: بلاده، شعبه:

كتب السرادينون روس في الأويزرفر عندما قرأه:

هذه أول مرة نعطى مؤلفاً مكتوباً بالإنكليزية عن رجل لغته العربية. إن هذا الكتاب ذو قيمة كبيرة لدرس السياسة الراهنة والحقائق الموثوقة. وهو ذو ناحيتين مختلفتين، الناحية السياسية، والناحية التاريخية الوصفية. وقد أجاد المؤلف في الاثنتين.

وكتبت مجلة بوك ريفيو مايلي: «كل كتاب يدبجه قلم أمين الريحاني يعد ثروة أدبية في العالم العربي، وكتابه ابن سعود يعد أحسن كتاب كتب عن البلاد ا لعربية حتى الساعة.».

منشئ العربية الحديثة:

وكتب هوتن منفلن عن هذا الكتاب مايلي: «إن الريحاني هو الرجل الوحيد الذي جاب الجزيرة العربية كلها في سياحة واحدة، وكتابه الإنجليزي يمتاز عن غيره في وصفه الجميل، وفي سرد الحوادث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية».

أقوال عامة

كان لكتابات الريحاني عن بلاد العرب وملوكها، وخصيصاً ابن سعود، أبعد الأثر في الجرائد والمجلات الإنكليزية العديدة، ـ ومنها مجلة آسيا الشهيرة ـ فكانت تلك الكتابات خير وسيلة لتعريف الغرب على الشرق ورجالاته. لقد حلت تلك الكتابات محلها الأسمى في النفوس لأن لكاتبها منزلة رفيعة عند قراء الإنكليزية.

ولهذا كتبت عنه مجلة آسيا ما تعريبه:

«إن كثيرين من الأوربيين ـ سياسيين وجنوداً وعلماء ـ زاروا بلاد العرب. فهناك مثلاً (بركهارت) و(بورتون) و(دوتي) الذين طافوا أنحاء بلاد العرب الوسطى والغربية و"فلبي" الذي اجتاز الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر، ولكن قل بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المساعدة على التعرف الصحيح، وحق المعرفة، في بلاد العرب وملوكها كأمين الريحاني»

إن العربية هي لغته وهو يتقنها كما يتقن الإنجليزية، ويكتب ببلاغة في اللغتين ـ وقد تنقل في جميع أنحاء الجزيرة وغايته إيجاد حلف عربي يجمع ملوك الحجاز وإمام اليمن والسيد الإدريسي وسلطان نجد في هذا الاتفاق، فيوجد إمبراطورية عربية تعمل في سبيل السلام والتمدن.».

وكتب رئيس نادي الثريا في الولايات المتحدة، وهو ناد ـ كما مر ـ يضم كبار أدباء أميركا في الولايات المتحدة: «إن أمين الريحاني هو أفصح خطيب دخل دائرتنا.»

واعترافاً بنبوغه وعبقريته فقد دعاه المستر ماركهام، أشعر شعراء الولايات المتحدة، إلى مأدبة تعود أن يقيمها للخلص من زملائه كل عام.

ودبج «فاركاس لا فيلا» الكاتب الشهير الذي يعد عند الإسبان بمنزلة مكسيم غوركي الروسي، فصولاً تحت عنوان «أطواق الذهب» تحدث فيها عن طائفة من جبابرة الفكر في هذا العصر فقال عن الريحاني مايلي:

«بماذا تراني أحدثك عن أمين الريحاني الشاعر الحقيقي الساحر. يخلبني بعمق فكرته ورحابة آفاق تأملاته وخياله. فقد تجنح فكرة واختمر خياله الخصب النامي حتى أصبحا شعراً، وحتى تحولا إلى خمرة معتقة إذا سكبت في الأقداح لا تعافها الأفواه».

لقد نشأ هذا الشاعر في بوادي الشرق تحت أشعة الشمس المحرقة، وفي ظل ظلال الجوامع العالية. ففي وسط هذه التأثيرات الصامتة ملأ جرة أحلامه وتصوراته وخيالاته، وعندما نما فكره وارتفعت شجيرة أحلامه أفرغها شعراً عميقاً وطروباً في أفواه الآلهة....».

وقال الأستاذ كراتشكوفسكي المستشرق الروسي في كتاب أرسله إلى صديق له:

«إنك لتسمع غالباً في كتابات الريحاني المبتكرة أصواتاً حربية جريئة بعيدة الصدى، فهو ينشد الثورة ويدعو الناس إلى التآخي. ومع ذلك فالقوة في نبوغه ليست فقط في هذه الناحية من أدبه»..

وقال أيضاً:

«الريحاني هو أكبر كاتب عربي في هذا الزمان»

وكتب نظمي نسيم في جريدة السائح النيويوركية:

«لا أحسب أن في العالم العربي شخصاً آخر يحسن اللغة الإنجليزية كالريحاني، ولم أعرف أو أسمع أن كاتباً من كتابنا الذين هنا وفي سورية ومصر وإنكلترة وكل مكان آخر، قد جلس على عرش لغة بيكن وشكسبير كما جلس ويجلس أمين الريحاني»

وآخر كلمة ندونها في هذا الموضوع هي التي ننقلها عن كتاب أمين «المغرب الأقصى» الذي أخرجته حديثاً «دار المعارف» الرصينة. قال المقيم العام الإسباني في حفلة معهد الدروس المغربية بتطوان: «نحتفل اليوم في هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية، الأستاذ أمين الريحاني الذي شرفنا بقبول تسميته مديراً

شرفياً لمعهد الدروس المغربية. قد كان من أعز رغائبنا أن يتعرف إلى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعيني رأسه عمل فرنكو.

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها في العالم العربي.... إننا نترك الأمر لحكم التاريخ، والآن لشهادة أمين الريحاني»

* * *

هذه كلمات تدل على المنزلة السامية التي احتلها أمين في نفوس رجالات العالم قديمه وجديده.

في لغة الضاد

راود أمين لغته عن نفسها فما لانت له في أوائل كتبه: الثورة الفرنسية، والمحالفة الثلاثية حتى ولا الريحانيات، ولكن أميناً كان يرمي إلى غرض أسمى من التزويق والتنميق. كان يعنيه أولاً أن يعبر عن فكرة إصلاحية، ولهذا كتب المحالفة الثلاثية، والثورة الفرنسية، والتساهل الديني، والمكاري والكاهن، ومع ذلك لم يعن الناس بعبارته لأن فكرته الجريئة شغلتهم عن كل ذلك، ولذلك قالت جريدة الشمس النيويوركية - سنة ١٩٠٤ - عن المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية:

إن هذا الكتيب الصغير خلق ثورة فكرية في الجالية السورية وبعض الأميركان في هذه المدينة حتى إن أحدهم قال: «إن إميل زولا نفسه لم يكن قاسياً بكتاباته كما كان الريحاني في المحالفة الثلاثية».

وكتب ج. معلوف في أبي الهول:

«أتى أمين الريحاني الولايات المتحدة وهو صغير فقدرت له الظروف أن يتقلب في أحوال شتى. فعندما كان يافعاً افتتن بالتمثيل فكان يمثل على المراسح الأميركية روايات شكسبير، ومن ذلك اكتسب مقدرته الفائقة في آداب اللغة الإنكليزية وحسن الإلقاء. ثم تعلم التصوير - الهزلي - والصور التي في كتابه المحالفة الثلاثية هي تصوير يده - وكان لمدة متولياً إدارة محل أبيه التجارية فعرف كفاية عن معاملات الناس المادية. وهكذا درس أدوار الحياة قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره.

عرفت الريحاني لأول مرة في حفلة جمعية السيدات السوريات في نيويورك فكان الريحاني مندوباً من قبل جمعية الشبان السوريين ليخطب في تلك الحفلة، فخطب بالإنكليزية لأنه لم يكن يحسن الإلقاء بالعربية آنئذ، ثم ساح إلى الوطن

وبعد رجوعه سمعته يخطب مرة أخرى في حفلة جمعية الشبان المارونية في نيويورك وكانت تلك أكبر حفلة سورية، فخطب بالعربية في موضوع التساهل الدبني، كقاعدة لإصلاح الشرق. ومع أنه تكلم بحرية وبجرأة لم يسبق لهما مثيل، كان بقاطع بتصفيق الاستحسان من الجمهور. ثم ألف كتابه (المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية)وقصده هدم الخرافات الدينية، ولكنه كان شديد اللهجة فصادف اضطهاداً عاماً وقامت عليه الجرائد والإكليروس. حتى إنه قبل أن ينتشر .كتابه المحالفة الثلاثية لم يكن أحد يجسر على أن يقول كلمة بذي سلطان، فصار بعد ذلك أشد الانتقاد هيناً ومقبولاً، وصار الناس، ومنهم الكتاب، يتمتعون بالدرجة الوسطى من حرية القول. والفضل في ذلك للريحاني. ثم ترجم مختارات من أشعار أبي العلاء المعري فكان لها دوي في أميركا وأوربا.

وكتب حبيب البشعلاني بعد ما سمعه يخطب: ومضى الريحاني في المجالس والنوادي الأدبية يثير سكوتها، ويبعث نفسيتها الوجلة ويوقظها على الثورة، وينادي من فوق منابرها بالهدم والتحطيم، معلناً الثورة على المجتمع وتقاليده وسلطانه الموبوءة بالجور، وعلى خموله وقعوده، لا يستثني تقليداً اجتماعياً كان أو سياسياً حتى الدين ورجاله، وهما أعز تمكيناً من النفوس وأقوى سلطاناً في المجتمع الشرقي.

كان عليك، في ذلك العهد، لتدرك سر هذا الرسول الخارج المنادي بدعوته، أن تسمعه داعياً خاطباً لا أن تقرأه كاتباً منشوراً في الصحف، والريحاني جليل المنطق مهيب الموقف قوي الإيمان بدعوته فيبعثها محرقة، ونظيره في الإلقاء قليل».

وبعد هذا جاء الريحاني لبنان جيئة لا أدري عددها الترتيبي، فراح يذيع في صحف العالم العربي ريحانياته فلفتت إليه أنظار الأدباء والكتاب. وقالت فيها مي: «إن الريحانيات كانت من الكتب الخمسة أو الستة التي عرفتني بإيمان الفكر الحر في العالم العربي الحديث في صيغتي الشعر والنثر».

وقال فليكس فارس: «لقد أصبح كوخ الريحاني في أعالي الوادي محجّاً يؤمه كل من استطاب نفحات الأدب، والشعر، والأدب دولة، الفلاسفة ملوكها، والشعراء أمراؤها.»

وكتب الدكتور منصور فهمي: «لقد تبينت من القطعة التي سمعتها (من إنشاء الريحاني) أسلوب العظمة الكتابية وصفاء النفس، والروح الثائرة على النظم العتيقة.

أمين الرحالة

وخطر لأمين أن يرحل في سبيل الوحدة العربية تاركاً الصوفية وخيمة الدرويش وكوزه وإبريقه، فاستقبلته الأقطار العربية استقبالاً منقطع النظير استحقه جاهه الأدبي، فكتبت جريدة الأهرام عند وصوله إلى القاهرة سنة ١٩٢٢: (هو الكاتب المشهور والمفكر المدقق صاحب التآليف الثمينة باللغتين العربية والإنكليزية، وخير ممثل للنبوغ الشرقي في العالمين الأميركي والأوروبي).

وعندما أقيمت له حفلات التكريم في مصر قبل سياحته في الجزيرة العربية أقام له أحمد زكي باشا حفلة دعاها (صحراوية) وكان الحاضرون لا يقلون عن خمسة آلاف شخص، وقد حملت رقعة الدعوة مايلي:

«أحمد زكي باشا يرجو مشاركته في تكريم ثالث الثلاثة بعد الجعدي والذبياني، نابغة العرب الجديد أمين الريحاني بتناول الشاي على سماط بدوي فوق بساط الرمل وتحت ظلال الأشجار الحرام التي غرسها الصحابة الكرام في سفح الأهرام، يشرف عليها بلهيث (أبو الهول) الفصيح بإشارته، البليغ في صمته، القائم على الدوام بحراسة كنانة الله في أرضه»

وقد نظم أحمد شوقي قصيدة لهذه الحفلة العظمى التي حضرها أساطين مصر حتى شيخ الأزهر، ومما قال فيها مخاطباً الأهرام:

هذا الأمين بحانطيك مطوفاً
متقدم الحجاج والوفاد

إن يعـــدده منك الخلود فـــشـــعـــره
باق وليس بيـــــانـه لنـفـــــاد

إيـه (أمين) لمست كل مـــحـــجـب
في الحـــسن من أثر العـــقـــول وباد

إلى أن يقول:

رفـعـوا لك الريحـان كـاسـمك طيـبـاً
إن العـــمـــار تحـيـــة الأمـــجـــاد

وتخـــيـــروا للمـــهـــرجـــان مكانه
وجـعلت مـوضع الاحـتـفـاء فـؤادي

إلى أن قال يحثه على تجديد لغته العربية:

لم يكفـــهم شطر النبــوغ ، فــزدهم
إن كنت بالشطرين غـــيـــر جـــواد

أودع لســانك واللغـــات فـــربما
غنى الأصـــيـــل بمنطق الأجـــداد

إن الذي مـــلأ اللغـــات مـــحـــاسناً
جـعل الجـمـــال وســـره في الضـــاد

أما مي فقالت:

«إن الريحاني وجبران توأمان: عبقريتان ساميتان برزتا إلى عالم الوجود تحت سماء سوريا، والقرن الماضي ينحدر إلى خاتمته. غادرا الشرق ونزعا إلى وسط حار، كله عمل، كله نشاط وعظة. وهما اليوم يداعبان الذيوع بما يبذرانه من آيات خالدة. ولسوف تكون تلك الآيات حديثاً منقولاً فائح الشذى يطير بأجنحة الزمن من قرن إلى قرن. ولسوف يتوجهما الغد بإكليل وضعه من قبل على رأس شكسبير. كرموا اليوم ضيفكم وأنصتوا إلى تلك القيثارة العازفة فما هي باقية بينكم سرمداً».

في العراق:

ولم تقصر العراق عن مصر في تكريم الأمين فأقامت له حفلات عظيمة كمصر، لم يظفر أديب من قبل، بما ظفر به الريحاني، إذ لم يبق شاعر كبير في مصر والعراق وجميع الأقطار العربية إلا قال فيه خير شعره. كانت زيارة أمين لقاحاً للأذهان والعقول، داعية إلى الثورة الفكرية التي رأيناها فيما بعد.

فهذا شاعر العراق الأمثل معروف الرصافي يخاطب الريحاني قائلاً:

من أين يرجى للعـــــراق تقـــــدم
وسـبـيل ممتلكيــه غـيــر سـبـيله

لا خـيـــر في وطن يكون السـيـف عند
جـبـانـه ، والمال عند بخـيـله

والرأي عـنـد طـريـده ، والعـلـم
عند غـريـبـه ، والحكم عند دخـيله

وقد اسـتـبـد قليله بكثيـره
ظلماً ، وذل كـثـيـرة لقليله

وهذا الشاعر الفيلسوف الزهاوي يقول:

أقـول للغـرب وهو اليـوم ذو قـدر
يلقي على الشـرق كف القـاهر البطر

كـفـاك مـا أنت تأتيـه من الضـرر
للشـرق أرهقت لا تخـشى حـزازته

ياغـرب إنك مـغـرور به أشـرُ

إلى أن قال:

خـفف من الوطء فـالأيام تنقلب
الشـرق يشـبـه بركـاناً به حـمم

أخـاف من أنه يا غـرب ينفـجـر

وكأن فيلسوف الفريكة قد أصبح المنقذ المنتظر حتى هتف به ثالث شعراء لعراق «محمد الجواهري»:

أمـشـقـف القـلم الذي آلى على
أن ليس ترجح كـفـة اسـتـعـبـاد

ومـشـيـداً للشـرق ركناً يلتـجي
منه بأمنع ذمـة وعـمـاد

أنصف شكيّة شـاعـر قـد حلقت
بالصـبـر منه فظائع الأنكاد

وهكذا مضى الشاعر يبث شكواه ببلاغته وحماسته المعهودة.

إن لهذه الحفلات التكريمية كتباً جمعت ما قيل فيها، وليس يتسع هذا المجال للتحدث عنها وعن المتكلمين فيها جميعاً.

رسول الوحدة العربية

لا بدع إن سبق الريحاني الساسة إلى التفكير بجامعة عربية، وهل نستغرب ذلك والتاريخ ينبئنا أن الفكرة السياسية يتمخض بها، أولاً، دماغ أديب أو فيلسوف. زج الريحاني نفسه في هذا المضمار، وكله إيمان بحيوية الأمة التي «في عروقه شيء من دمها» فمشى رافعاً علمها في الخافقين. ما يئس أمين قط من فوز دعوته ولو بعد حين، وقد حققت الأيام الكثير من أمانيه الكبيرة ولكنه لم ير بعينيه مادعا إليه لسانه. وما أظنه إلا عابثاً حين شبه نفسه بدون كيشوت في مقدمة كتابه «المغرب الأقصى» الذي أخرجته حديثاً «دار المعارف المصرية» بحلة قشيبة بعد موته. قال أمين رحمه الله:

«ورأيتني أعيد الكيخونية - عفواً يا سيدي سرفانتس - إلى أصلها العربي، وإن تغرب لسانها. رأيتني أشحذ القلم واللسان بالإنكليزية، وأحبر المقالات وأؤلف الكتب بالإنكليزية وأقف على منابر الجمعيات والجامعات الأميركية، الإنكليزية، لأفهم العالم الجديد، رومان هذا الزمان، إن في العالم غير أميركا والأميركان، وأنهم هالكون حتماً إذا استمروا في جهلهم واستقووا. والغريب العجيب أنهم مثل البرابرة في الطهر والسذاجة قلباً ووجهاً، كانوا يصفقون للخطيب - أي للريحاني - ويرحبون به وبعلمه. فازدادت الرغبتان، رغبتهم في التعلم ورغبتي في التعليم - بارك الله فيَّ وفيهم»

«وتبعت الرحلات العربية رحلات أميركية، على أن نكبة فلسطين بالصهيونية نقلتني من التعميم إلى التخصيص، دفاعاً عن إخواني العرب في وطنهم الذي يريده اليهود وطناً قومياً لهم»

إلى أن قال: «وهذا اللبناني العربي يحمل الترس والرمح - كما حملهما دون كيخوتيه دة لا منشأ حقبة من الدهر، في سبيل العدل والفضيلة - على معاقل إسرائيل، على حصون يهوذا، ويلك يا نيويورك، ويلك، اكتبي الحجة لليهود بماء الذهب، وسجليها في سجل الصيارفة، والكهان، ومثلي رواياتها بالأفلام والكلام، على ألفي مسرح وشاشة».

«وبعد ذلك؟ ماذا بعد ذلك؟ ستنقفين ذات يوم قبل صياح الديك، وستصفرين صفير الهول والهلع، ستسمعين صوتاً يناديك ويقول: صدق العربي البار، الحق أصدق أنباء من الدولار!» (المغرب الأقصى صفحة ١).

والغريب من أمر هذا الرجل أن الدول كانت تدعوه لتسمع أقواله فيوبخها ويؤنبها، ويختم كلامه بالدعاء للعرب، فها هو في المغرب الأقصى يداعب المقيم العام الإسباني فيجيبه المقيم العام: «اسأل نفسك يا ريحاني، إنك تحمل منذ أربعين سنة الرمح الذي حمله دون كيخوته، وأنا مثلك - حامل ذلك الرمح - إننا أخوان. وإن لنا في العالم، على ما فيه من المنكرات، إخواناً... المحبة يا ريحاني تحل مشاكل العالم كلها، نعم لولا محبتي للعرب لما استطعت أن أقوم بعمل واحد فيه شيء من الخير الكبير».

أما أمين فيختم هذا الفصل بهذا الدعاء الصادق: «جمع الله كلمة العرب، فيضيء نورهم مرة أخرى في العالم»(ص٣٩٦).

وبلغ من عروبة أمين التي كان فيها عربياً أكثر من سادة العرب أن دعته الأحزاب الفلسطينية للتوسط بينها في أمر الصلح، كما جاءه، من قبل، عام ١٩٢٤، وزير خارجية الحجاز موفداً رسمياً ليتوسط في الصلح بين الملك حسين والعاهل السعودي.

والرسائل العديدة التي عنده من ملوك العرب تؤيد ما نزعم ولو أن هذه العجالة تتسع لها لذكرنا الكثير منها ولكننا نكتفي بشيء من مكتوبي الإمام يحيى:

«ويسرنا إرسال نسخة من المؤلف إن شاء الله بالواسطة التي وصل بها الكتاب، وقد وصل ما أتحفتمونا وإننا نهدي لكم التشكر وحسن الثناء؛ لما تقومون به من الأعمال الخيرية وخدمة العنصر العربي ووحدته التي سيحقق الله وجودها الفعلي في الزمن القريب ويسرنا دوام مواصلة تحريركم البديع ونسأل الله لنا ولكم التوفيق إلى أقوم الطريق ١٥ رجب ١٣٤٣»

وفي كتاب آخر يقول الإمام للأمين: «ولا تدعوا ممكناً في رعاية الجامعة العربيه وماتنال به حقوقها المغصوبة وقول الحق مقبول ينتصر له ذوو العقول».

وقد كتب إليه الأمير شكيب أرسلان من جنيف عام ١٩٣٩ في ١٨ شباط مايلي:

«وأصل إن شاء الله إلى بيروت في أوائل مارس، وبعد أن أبقى في الشويفات جمعة من الزمن أتوجه إلى الشام لتسلم عملي الجديد رئاسة المجمع العلمي، وفي آخر

الصيف قد أعود إلى جنيف لأن بقائي في هذه الوظيفة موقوف على تصديق المعاهدة السورية الإفرنسية، فإن انتهى الأمر بعدم تصديقها فلست مقيماً ببلاد تحت انتداب الأجانب أيّاً كانوا ».

وكتب إليه سعيد العاصي من جده عام ١٣٤٣ «وبعد اطلاعي على كتاب ملوك العرب علمت بأنكم رسول الوطنية في عصرنا ولو أنكم تغاليتم في ابن سعود »

ومن مونتريال كندا جاءه كتاب من السيد شاهين عبود بتاريخ ٣ حزيران ١٩٢٩ نقتطف منه هذه العبارة:

« أما وللعرب عاطفة الريحاني وثباته وقلمه وروحه الشديدة الإيمان بالوحدة التي يسعى إليها كل ذي ضمير حي، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

أما الصحف والمجلات العربية الكبرى فأكبرت عمل الأمين وجهاده فقال المقتطف عن كتابه « حول شواطئ البلاد العربية » مايلي:

« شد الريحاني رحاله إلى بلاد العرب في ١٩٢٢ مؤثراً شظف العيش على نعمائه في دور العالم الجديد، لأن له غرضاً يختلف عن أغراض سابقيه الأعلام، دومي وبالغريف وبوخاردت وبرطن وغيرهم، وغيرهم. غرضه أن ينقل إلى ملوك العرب وأمرائها رسالة علوية، هي رسالة الاتحاد والتعاون لعلها تكون ركناً لتجديد الحضارة العربية وبعثها. وإن ما فعله في هذا السبيل والذي تقرؤه في كتبه الإنكليزية (ابن سعود، بلاده وشعبه) وفي (صحراء وأعالي البلاد العربية)، وهذا الأخير (حول شواطئ بلاد العرب) لأنصع دليل على تلك الجهود التي بذلها في سبيل الوحدة. وإنك لا تقع، في كتب الريحاني على الوصف المضجر الذي تقع عليه عادة في كتب الرحلات؛ لأن الريحاني الفيلسوف الأديب يجمع بين الوصف الشعري والحكمة والفلسفة والسرد الروائي والتقرير العلمي في فصل واحد، فنقرأ الكتاب كما تقرأ الرواية الأخاذة.

وكتبت اللطائف المصورة عدد ٦٩٤ السنة ١٤

« لا نخطئ أو نغالي إذا قلنا إن ليس بين أبناء اللغة العربية من خدم بقلمه البلاد العربية بوجه عام، ونجد والحجاز وملكهما بنوع خاص، بقدر خدمات الأستاذ الرحالة الفيلسوف السيد أمين الريحاني، سواء أكان بمؤلفاته الإنكليزية والعربية، أو بما نشره في أمهات الصحف والمجلات في أميركا وأوربا ومصر وسورية »

وكتبت مرآة الغرب في نيويورك في مراجعة كتاب الريحاني الإنكليزي (حول الشواطئ العربية):

«إن حول الشواطئ العربية، من خير ما يجري به قلم باعتبار اللغة والتفنن وسعة الاطلاع وغزارة المادة، إلا أن الريحاني عربي أكثر من كل قرشي وقحطاني وعدناني ونجدي ويماني وحضري وبدوي معاً. وله في سياسته ومبادئه ملء حريته وكل حقه إذا هو لم يناقش اللبنانيين حساباً يجهله أو يتجاهله. إن كتابات الريحاني في العرب وممالكهم وأمرائهم ومشايخهم أفضل من كل ما كتب في الموضوع لأنها خلاصة أفضل ما كتب، ولولا تعصب المؤلف لهذه الأمة الكريمة التي تحتاج إلى النقد فوق ما تحتاج إلى الإطراء لكانت كتاباته خالدة، وهي بدون شك طويلة العمر.»

وأصدر الريحاني كتاب «النكبات» فحمل الكثيرون على المؤلف فكتب الكرملي يقول:

«إن غرض الريحاني من كتاب النكبات هو أن يفتح أعيننا على الماضي لنعتبر لا لنتغنى ونعيش في خيال ما فعله آباؤنا. فما كان عليه الآباء من الرفعة، كما قال جمال الدين الأفغاني، لا ينفي ما نحن عليه اليوم من الخمول والضعة.

كتب الريحاني النكبات ليفتح عقولنا على حقائق مخزية لنحاول نحن أن نكتب صفحة خالدة أجمل من الصفحة التي كتبها لنا أسلافنا في سورية».

أمين واليسوعيون

وشاع أن أمين الريحاني قد أسلم فكتبت «البشير» فيما كتبت هذه العبارة:

«فما قول «فيلسوف الفريكة» بهذه الرواية؟ أيثبتها أم يكذبها؟ وإذا كان أسلم أيكون أميناً على مذهبه الجديد كما كان أميناً على نصرانيته؟!»

أما الريحاني فكتب يجيب عندما سئل عن هذه الإشاعة بما يأتي:

«ما علمت بهذا الخبر إلا يوم دخولي دمشق، والذي أعتقده أن مصدر هذه الإشاعة هو كتاب أرسلته إلى الصديق سليم سركيس يوم كنت في ضيافة ابن سعود وقد جاءت فيه هذه العبارة: على أنني إذا وجدت القضية العربية بحاجة، لأن (أتوهّب) فسأتوهب، على أنكم تعلمون أنني رجل أعتبر جميع الأديان محصورة بمعرفة الله، فأكون قد أسأت إلى سمعة ملوك وأمراء العرب الذين زرتهم إذا قيل إنني اضطررت إلى الدخول في الإسلام لأتمكن من التقرب إليهم. ومع كل هذا فلا

أنكر أنني أمام هدوء البادية وعظمتها، وتلقاء ما كنت أشاهده من انعكاف جميع الوهابيين على الصلوات الخمس، يومياً، حتى كنت أجد نفسي وحيداً فريداً في وقت من أوقات الصلاة التي لا يعفيني منها هناك لا صغير ولا كبير، استولت علي عاطفة حب مناجاة الله فألفت لنفسي صلاة خصوصية كنت أتلوها كلما وجدت نفسي فريداً والقوم في عبادة ربهم، والصلاة هي «النجوى».»

وعلى الرغم من ماكان بين الريحاني واليسوعيين من العداء المستحكم فإنهم عند درسهم في أميركا كتاب مسلك النفس الذي وضعه في الإنكليزية لم يتكلفوا إلا إظهار الحق فقالوا:

«مسلك النفس مقالة كتب بعضها في أميركا والبعض الآخر في سورية، والمؤلف يعالج مشاكل حياتنا اليوم واضطراباتها وينبهنا إلى وجوب محاسبة أنفسنا، ويقول إن القلق المستولي علينا إنما هو ناشئ عن التكالب في سبيل الماديات. ها هنا مصدر الاضطرابات في الحياة الاجتماعية منها والدينية والاقتصادية»...فلو أن المؤلف أمسك قليلاً عن عدائه للكنيسة عداء يكاد يكون فولتيرياً (نسبة إلى فولتير) وقلل من الانتقاد لها، وأكثر من التسخط على ماديات هذا الزمان لكان يصل صوته إلى القلوب والعقول فينفع برسالته أمة استحوذ عليها القلق والاضطراب».

ثم كتبت في مجلة المشرق في (أيار ١٩٣٤) تقول: لا نعرف أديباً خدم بلاده والأقطار العربية بأسرها كأمين الريحاني، ولو كانت خدماته مقتصرة على المؤلفات التي وضعها في اللغة العربية لتساوى مع عشرات الباحثين من أبناء الوطن الذين يكتبون في محيط ضيق. ولكن الريحاني خدم بلاده ولغته بنقل أمانيها وآدابها إلى لغة الإنكليز، فتعرف الأميركان والإنكليز على منتجاتنا الأدبية وتمنياتنا الوطنية».

وفي هذا المقام أرى لزاماً علي أن أذكر أن كتابات أمين الريحاني قد نقلت إلى أكثر من خمسة عشر لساناً، أما ما طبع من الفصول التي حبرها أمين بالقلم الإنكليزي فلا يقل عن عشرة مجلدات، ولكنه لا يزال منشوراً هنا وهناك في زهاء مئتي صحيفة ومجلة إنكليزية كانت تتسابق إلى نشر هذه الآثار.

أمين والانتداب

كان أمين عدو الانتداب رقم واحد، فبعد ثورته على الشعر الباكي التي كان لها ما بعدها، ألهبت قرائح الأدباء والمتأدبين فحملوا الأقلام والنبابيت، هذا مع

الريحاني وذاك مع الأخطل الصغير، «سالب بأعناق الفصول أباطح الصحف... ثم لم يشأ الأمين أن تقف تلك المعركة الأدبية عند ذاك الحد فأصدر كتاباً عنوانه: «أنتم الشعراء» فانبرى للرد عليه ثلاثة كتاب بكتاب عنوانه: أجل نحن الشعراء. وإذا تأملنا النهضة الأدبية اليوم رأينا الجيل الطالع يريد أن يتوجه الأدب في الطريق النضالية التي شقها الريحاني.

أعلن أمين تلك الحملة الشعواء في حفلة الجامعة الوطنية بعاليه عام ١٩٣٣وغمز من قناة الانتداب على سمع الكونت دي سالان الذي كان يمثل المندوب السامي فيها. ظن الناس بعد سماع تلك الخطبة النارية أن سيكون حظ أمين النفي، ولكن لكل أجل كتاب، أجّل النفي إلى مابعد خطبة ألقاها الريحاني، بعد قليل من الزمن، في بيروت، قال فيها: «قد انتقلنا وما تغيرنا، إلا إذا حسبنا الرجوع إلى الوراء تغيراً. من عهد عبد الحميد إلى عهد عبد البعل، ومن ظلم ظاهر إلى ظلم خفي، من ظلم مختل إلى ظلم منظم، ومن ظلم يحمل النّبوت والكرباج، إلى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات... من استبداد يمنح الامتيازات ليدفع ديونه الأوروبية إلى استبداد يستثمر الامتيازات ليزيد ثروته ويفقر البلاد. من استبداد يفرّق ويسود لمجد الدولة إلى استبداد يفرّق ويسود للاستعمار. من عبد الحميد إلى الانتداب، من عبودية أدبية روحية إلى عبودية اقتصادية مادية، من عبودية بطنها ملآن إلى عبودية المجاعة، من خازوق واحد قائم تحت عين الشمس إلى خوازيق تنجرها لنا الليالي، من دستور منشور إلى دستور معلق.

من عهد عبد الحميد إلى عهد دي مارتل، هذا العهد السعيد، هل تقدمنا؟ هل ارتفعت أخلاقنا؟

كان عندنا حانات وخانات فصار عندنا مرابع وأرتيستات. كان عندنا كازينو واحد للقمار في صوفر، فصار عندنا كازينات، وحلقات لسباق الخيل وللبنات...

ولما فرغ من التعداد قال: منذ ثلاثين سنة وأنا أضرب الطينة بالحائط، فهل الحق على الطينة إذا كانت لا تلصق أم على الحائط، أم على اليد الضاربة؟

لا أجيب على هذا السؤال ولكن قبل أن أستودعكم الله أقول لكم هذه الكلمة، أقول لكم كلمتين، ثلاث كلمات. الأولى: إن خلاص الإنسان بيده، انهضوا ينهض الله معكم. الثانية: إن الأمة التي تكثر فيها الطفيليات لا تعيش طويلاً. فكروا بالإنتاج قبل أن يهلككم الاستهلاك.

أما الكلمة الثالثة فهي هذه: جارك القريب خير من أخيك البعيد. بل خبر من أمك الحنون البعيدة، والسلام عليكم».

قال أمين قبل أن يختم خطابه «أستودعكم الله» فما كاد يخرج من بوابة التياترو الكبير حتى اعتقل ونفي ردحاً من الزمن، فكتبت إليه بعد العودة رسالة فيها مداعبة مرة، فأجاب عليها برسالة كانت نبوءة. وقد نشرت روسماً ـ كليشه ـ في ديواني زوابع، فارجع إليها إذا لذّ لك أن تطالعها لتعلم أن هذا الجبار لم يلق سلاحه بل كان سيفه مخدته.

أمين واللغة

قضى أمين حياته في صراع مع لغة الضاد، آلى على نفسه أن يجيد البيان فيها فكان له ما أراد، ولكن كتابته لم تسلم من هنات هينات، كان يتمسك بها خصومه وينعون ذلك عليه. وهاهو يحدثنا عن نفسه في هذا المجال في مقدمة كتابه ملوك العرب:

«عدت إلى بلادي وكنت لا أعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير، فتغلغلت في سراديبها دون أن أرثي لحالي. وبينا أنا أتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر ـ لزوميات المعري ـ أنساني الكسائي وسيبويه، وكل من علم حرفاً في البصرة والكوفة».

وقال في رسالة يجيب الأستاذ جرجي نقولا باز: «لقد نقحت وصححت مقالاتي العربية جهدي... أي والله حينما تمر في مخيلتي الفاء السببية يعتريني صداع شديد، ولما أفتكر في الفرق بين المفعول به والمفعول معه والمفعول فيه يحل المغص بي، ومعي، وفي، فأود لو عفاني الدهر من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين»

وقد آلمه نقد كتاب له لم أعرف أيها هو لأنه لم يسمّه في الرسالة التي عثرت عليها، كما لم يسم المنتقد. لا بأس في نشر هذه الرسالة التي تدل على صراحة أمين.

«صديقي القديم العزيز:

السلام عليك ورحمة الله. لقد رابني أمر في انتقادك (لغة الكتّاب) وعلى الأخص لغة المجددين منهم، فهل لك أن تنير الذهن مني فتزيل الريب والحيرة؟ ما

رأيتك مرة تنتقد لغة كاتب من كتاب المسلمين فهل المسيحيون، وحدهم، يمتازون بهذا الشيء الذي يسمونه العبث باللغة، أو ليس بين المسلمين النوابغ من يشدّون بالذنب مثلنا وتظنون أنهم ملكوا الناصية؟

أنر ذهني، زادك الله نوراً، أليس في الكتاب المسلمين من يغلط غلطة واحدة لغوية، صرفية أو نحوية؟! أليس في كتاب المسلمين من تقصر مبانيه، ولو في فترة من فترات الإلهام والإبداع، دون معانيه، أو معانيه دون مبانيه؟ عهدتك عادلاً وعهدتك حكيماً، ولكني أراك في هذه الأيام مثل سواك، كمن هم دونك علماً وأدباً، تنقاد إلى ذلك الروح الخبيث الذي لا يرى في صلات الحياة الأدبية شيئاً يوازي ذرة من الميراث القديم... على أني أسألك، وأرجوك، وأتوسل إليك أن تذكرنا، وأنت في نعيم اللغة من الخالدين. اذكرنا من فضلك وتصدق علينا بشعرة واحدة من تلك (الناصية) الكريمة، ناصية اللغة، لنحرقها عندما نكون في خطر من غارات الجهابذة اللغويين والسلام عليك»

لا أطيل الكلام هنا لأن الريحاني مات وفي قلبه شيء من «حتى»...

وصية أمين

كتبها في أيلول ١٩٣١ وهي ليست وصية لفرد من الناس بل لأمة عاش أمين لأجلها ولذلك تجد فيها نقاطاً فلسفية اجتماعية سياسية دينية، جاء في الوصية الثامنة مايأتي:

إن الوحدة العربية المؤسسة على القومية لا على الدين هي وحدة مقدسة فأوصيكم بها. واعلموا أن لا خلاص للأقليات من ربقة الأجانب، أو في الأقل من التدخل الأجنبي، إلا باتحادهم مع العرب، بل بامتزاجهم بالأكثريات امتزاجاً عقليًاً أدبيًاً روحيًاً، فتصبح البلاد ولا أكثريات فيها ولا أقليات. واعلموا كذلك أن لا مستقبل مجيداً للعرب ولا وحدة عزيزة شاملة بغير الحكم المدني الديمقراطي القائم على العدل والمساواة بالحقوق والواجبات.

واعلموا أخيراً وتأكدوا أن في الدولة العربية الكبرى ستضمحل العصبيات الدينية والطائفية كلها، أو ستنحصر في دوائرها الخاصة بها ولا تتعداها. وسيقوم مقامها في الوطن عصبية الجنس واللغة والثقافة، وقد ارتبطت كلها بالمثل الإنساني الأعلى، وبالمصلحة المشتركة المتبادلة بين الأهالي جميعاً على السواء».

وفي الوصية (١٤) «إن أنوار العالم القديم على وشك الانطفاء كلها. فتيقظوا وراقبوا المصابيح الجديدة وسيروا في مقدمة المستنيرين بأنوارها »

وفي الوصية (١٩): «لا أظن أن المسيحيين والمسلمين أو اليهود والبوذيين يسارعون ويتسابقون للصلاة على جثماني. ولا أظنهم إذا فعلوا، ينفعونني لأني لا أعتقد بنفع الصلاة لغير صاحبها، ولا أعتقد بنفعها إلا إذا كانت محض روحية، أي محصورة في التأمل، ولا تتجاوز الطلب والاستغاثة. فالتأمل الروحي هو للنفس كالنور للحياة النباتية، فتتغذى به أزهار الألوهية، ويفوح طيبها في بساتين الحياة. وكل امرئ من هذا القبيل هو كاهن أو إمام نفسه، يفيدها باجتهاده، ولا يفيد سواها. أما الصلاة التي هي طلبات يوجهها المرء إلى خالقه فإنما هي صبيانية، بل فيها شيء من الجحود، كأن الله لا يعلم بما في القلوب، كما جاء في الأديان كلها. أو كأنه، سبحانه وتعالى، مثل الإنسان ينسى أو يتناسى. فإذا كانت نفس الميت، مثلاً، في حاجة إلى الصلوات، فقد أصبح أقرب إلى العلم الإلهي مماكان في الحياة، وقد أصبح ولا شغل يشغله عن الصلاة، فلا تكلفوا أنفسكم إذاً أيها الآباء المحترمون وأيها الأحباء. وبكلمة بسيطة صريحة وجيزة لا أريد أن يصلي على جثماني أحد من رجال الدين أو غيرهم».

الريحاني الكاتب
طاقته الفنية وآراؤه الاجتماعية

دب أمين الريحاني ونشأ على كتف واد رهيب من أودية لبنان، وترعرع، كما رأيت، كأكثر نوابغنا في مدرسة غير ذات جدران، في ظل السنديانة والهيكل. ثم ارتقى إلى مدرسة أعلى رتبة فألم بمبادئ اللغتين العربية والفرنسية ثم التحق بأبيه فارس المهاجر قبل أن بلغ رشداً. وفي أمريكا أتقن اللغة الإنكليزية فبرع فيها، وبعد محاولات لم يفلح فيها احترف الأدب فصار فيه كأخي الخنساء، علماً في رأسه نار. لم تكن شهرته في الشرق أقل منها في الغرب، بل كان صلة التعارف بين المشرقين، مسموع الكلمة عند التوأمين، وكثيراً ما حاول الجمع بينهما، وإن قال الشاعر الإنكليزي: «كبلنغ» لن يجتمعا.

كانت لأمين رحلات بين أميركا ولبنان فمن هناك إلى هنا، ومن ههنا إلى هنالك. حمل إلى أميركا أكياساً من صوفية الشرق وفلسفته، وجاء إلى الشرق بحمولة من (عملية) العالم الجديد، وصناديق من منتوجات حرة كتب عليها: سريعة الانفجار. كانت رسالته أحياناً غير مرغوب فيها ولكنه فرضها على الناس فرضاً. له رسالة لابد من أن يؤديها وحسبه ما يعلق منها بالأذهان. فهو لا يلح على الناس ولا يلحف، يقول كلمته ويمشي كما قلنا. يكفيه أن يدعك تفكر بما قال ليعتقد أنه خرج من المعركة ظافراً.

وجه كأنه وجه الفرزدق، وعينان كحمامتين تجثمان على بركان فائر، وأنف بين أنف ابن حرب وأنف بلقيس، وفم صارم كأنه باب السجن، أذنان كمروحتين

مهيرتين، وجبهة كأنها مرج ابن عامر. هذا خلقه، أما خلقه فلا يسف في حديثه ولا يتزمت، هو بين بين في معاشرة الناس، لا يفتح الزجاجة فيفوح المسك والعنبر، ولا يسدها سداً هرمسياً، لم ينطق بكلمة فاجرة ينفر منها أشد الناس تمسكاً بالعرف، لا تفوح رائحة أحماضه في المجلس فتعمي وتصم.

منذ خطت يد الريحاني أول كلمة عربية أعلن الرجل استقلاله الناجز تفكيراً وتعبيراً. ظل في مهب رياح التطور الفكري حصة من الزمن يترجح بين صوفية مائعة، وعملية حديدية. أما في التعبير والأسلوب فما انفك يبدع قوالب خاصة حتى آخر ساعة، لم يبال أمين، وشعاره: قل كلمتك وامش، بما يقوله غيره. لبس بذلته ولا يمنعه ما يقول الناس فيها مادام هو راضياً عنها.

أعطى من السخر شيئاً كثيراً، ولكنه سخر مستور غير مفضوح، لا يشمّر بكرم فضاح كالتي رآها في الصحراء تعبر النهر، ولا يسكت إذا وجد مجال القول ذا سعة. ليس في كتابنا أصرح منه ولا أجرأ، يطلب الحقيقة دائماً، ويقولها كل حين، إذا قال صدق، لا يوارب ولا يداجي، يسكت حتى يستطيع الصدق. حاد المزاج ناري الشعور، ولكنه ضابط نفسه، يخرج عاطفته الثائرة بأسلوب غير مبتذل. أشد سلاحه التهكم، وتهكمه يؤلم ولا يضحك، ترثي لمن يتناوله ذلك المبضع الذي ينحدر إلى الأعماق حيث اللب والرعب والحقد كسهم البحتري الذي أ طلقه على ذاك الذئب.

أمسك بالحبل من طرفيه منذ الساعة الأولى. ترجم رباعيات أبي العلاء إلى اللغة الإنكليزية، وأخرج إلى العربية «التساهل الديني» و«المكاري والكاهن» و«المحالفة الثلاثية» فكأنه وضع بها من حيث لا يدري أساس رسالته التي تناولتها يد التطور، فتذبذب حيناً كرقاص الساعة الهادي، بين روح هائمة وجسد يرى في المادة ملاذه، قد تجلت هذه المبادئ متحدة في صلاته التي كان يتلوها - كما روى - في البادية، بادية العربية السعيدة.

الريحاني في هذه الصلاة رجل يريد روحاً وعقلاً وجسداً ليؤدي رسالة بني أمه، رسالة العروبة الموحدة. رسالة الفلاح العربي وإحياء المجد العربي القديم. فقبل أن نظهر رسالة أمين النبيلة فلنر العناصر التي تؤلف هذه الشخصية الفريدة، هذه العبقرية التي مرت في سمائنا مرور الشهاب المتهاوي فروّع الليل، وشق أحشاء ظلماته، ثم عقبت ذلك النور الثاقب ظلمة مدلهمة تكاد الكف تلمس جلدها.

إن حب الطبيعة هو العنصر الأول الذي تتألف منه شخصية الريحاني. فأمين

ككل جبلي دب تحت الخيمة الكبرى تصبحه الشمس وتمسيه، تصافحه النسيم ويضربه الهواء. يسامر النجوم والقمر، وموسيقى الطبيعة تدغدغه بلا انقطاع. يتمتع طليقاً بجمال الفصول الأربعة، فمن مرح الربيع إلى كآبة الخريف، ومن جدّ الصيف إلى جهومة الشتاء. ولد حراً يغترف من عطايا الطبيعة ومواهبها ويخزن ما استطاع منها في غضون عبقريته وجيوبها إلى الساعة المنتظرة، ساعة الرسالة التي خلق لها، رسالة الأدب الرفيع والنضال القومي في الشرق والغرب. وقد عج بهذه العواطف شعره المنثور الذي أبدعه في الأدب العربي، فزادت به ثروتنا الأدبية وأصبح ميداناً مفتوحاً للذين لا يحسنون الشعر المقيد، وأمين واحد منهم. فهذا الشعر الريحاني يعبق منه أريج الأزهار، وتحشرج فيه العواصف والأعصار، حافل بأنين الناي وطقطقة الرعاة، وزقزقة العصافير.

في هذا الشعر الذي تعرفنا به أجزاء الريحانيات الأربعة موسيقى شاعر ملهم، وحنين واله، لا أثر للتكلف فيه، بل هو صرخات نفس تتألم ولا تجد عزاء إلا في حضن الطبيعة التي تتملق بنيها حيناً، وتعض وتلبط أحياناً. موسيقى تبطنت شعر أمين المنثور الذي أملاه عليه وجدانه الثائر قبل أن ينفجر مصلحاً كبيراً، وسياسياً مسموع الصوت نافذ الكلمة، يقتحم المخاطر في سبيل تحقيق الوحدة العربية. ولكن كتابته في الشؤون السياسية وشجونها هي من صميم قلب الأدب، ففي الريحانيات وملوك العرب و كل ما كتب أمين ترى ما التقطه ذهن هذا الأديب الأصيل من مشاهد فرسمها أبدع رسم.

وإلى عنصر الطبيعة ينضم عنصران آخران يتصلان به ويتفرعان منه هما: المهاجرة، والمطالعة. فالهجرة مدرسة الريحاني وجامعته الكبرى التي تلقى فيها دروسه وكان أستاذ نفسه، ففيلسوف الفريكة لم يتلق علومه في الجامعات الرسمية، هو ابن همة نفسه، ابن رغبة فائقة الوصف، نهم إلى الاكتشاف عن طريق البصر والبصيرة، يتلقى الدروس حيث حل، يرى وينتقد، ويحكم ويستنتج، ويدرك ويدخر إلى حين الحاجة. ففي التأمل الذي لا ينتهي، وفي الاستكشاف المستمر في الكتب والمتاحف، وغرائب الدنيا وعجائبها التي شاهد جلها، تغذى ذهن الأمين ورتع، وأخرج البدائع والطرائف.

أما المطالعة فلا تسل عن عشق الريحاني لها. ولا تسل عن مغامراته فيها، فالرجل لم يتعلم لغته على أستاذ، بل عكف على مطالعة آداب أمته بجشع ورغبة

كما ينبئنا في مقدمة «ملوك العرب». وظل يروض نفسه عليها حتى أسلس قيادها. إن اطلاع أمين الواسع العميق يبدو في ملوك العرب حيث لا يغفل عن شعر أو نادرة يؤيد بها قوله ويدعم كلامه. وقد يأتيك بألفاظ وضعية لاتنقاد في الاستعمال إلا لجهابذة اللغة والأخصائيين فيها. يدلك هذا الاستعمال والاستشهاد على سعة اطلاعه، كما يدلك (اللحن) - وهو نادر في ملوك العرب، كثير في (الريحانيات) - على أنه معلم نفسه كما قال.

فمن هذه العناصر الثلاثة تتألف شخصية الريحاني، فإذا أضفنا إليها قريحته الوقادة، ولسانه الذرب، ونفسه اللينة العريكة، رأينا الرجل العربي الفذ الذي أجله ملوك العرب وكرموه، ووقره الأدباء والشعراء وعظموه. لم يذق أديب عربي في عصرنا الحاضر ما ذاقه الريحاني من تعظيم وتبجيل، فبيته كان مزاراً إذا حل. وهو كان موضوعاً يتساجل فيه أكابر الشعراء إن رحل.

لقد مر أمين في أدوار عديدة، فحبه الطبيعة واطلاعه الواسع على آداب أمته وتاريخها ربطه بوطنه، ونفسه الأبية التي تكره التدجيل والمحاباة والرياء سلخته من مدنية الغرب وجذبته إلى أمته، فأطل عليها من تلك النافذة، نافذة حب الوطن الذي تثيره محبة الطبيعة. إن ضوضاء أميركا يكرهها رجل نشأ كالريحاني، ولهذا ظل يعمل مسيراً بعوامل باطنية حتى أفلت منها عائداً إلى بلاده يدعو إلى الاتحاد والإخاء والحرية.

في المحالفة الثلاثية

قال الحجاج في إحدى خطبه النارية: «إن العلم يوشك أن يرفع، ورفعه ذهاب العلماء.» لقد كادت أقطارنا العربية أن تفقد هؤلاء ولكن ما نرجوه من الأحياء يحملنا على مخالفة رأي الحجاج. إن ثلاثة آلاف سنة تكوّن أرزة خالدة في رأس لبنان، أما دماغ كدماغ الريحاني فلا أستطيع تحديد الزمن الذي يصنعه.

عرفته صلباً كالألماس وإن لم يكن له بريقه ولمعانه. ربطته بالمطران الزغبي صداقة غير حائلة، ولكن ذاك المطران التقي لم يستطع أن يأخذ من عقيدة صاحبه لاحقاً ولا باطلاً. بقي المطران التقي لم يستطع أن يأخذ من عقيدة صاحبه لا حقاً ولا باطلاً. بقي المطران في حظيرته يرعى خرافه، وظل أمين جاداً وراء قطيع يرعاه في مروج الفلسفة الحديثة.

الريحاني وجه لبناني محض استمد لونه من أديم الجبل. مربوع القامة كبير الهامة، كان وجهه ثعلبياً في فتوته وشبابه، ثم استحال وجه أسد غضنفر حين اكتهل وحبا إلى الخمسين. ترفرف على محياه المهابة متوقراً، ويقرب من القلب متبسماً، أما إذا حمي غضبه فشرارة من جهنم... يصيح ويماحك ويطفئ سراجاً مشعلاً...

تدارسنا أدبه تلاميذ، وأول فصل عرفني به، قرأته في المقتطف موضوعه «وادي الفريكة». وفي جامعة العالم رأيت الريحاني، أول مرة، على منبر جمعية شمس البر ببيروت «١٩ آذار سنة ١٩٠٨» سمعته يخطب الناس فخلت أن عاموس النبي قد أفلت من بين الرعاة ليتنبأ قبل الزلزلة بسنتين...

علقت بذاكرتي عبارته هذه: الكاهن والطبيب والمحامي ثلاثة عقبان من بيضة واحدة. وارتسم في مخيلتي يومذاك شكله القسسي أو الفلسفي: شعر مسترسل كما قال امرؤ القيس:غدائره مستشزرات... ولم تفارق مسمعي نبرات صوته الخورسي وحركاته المسرحية التي تلبس عبارته ثوباً جديداً، وتودع فيها روحاً محيياً.

أمين ثائر متمرد، هو رجل كفاح ومن كتاب المعارك.

يثير خلفه، وحوله، وفوقه، وتحته غباراً لا يشق، يقول كلمته ويمشي، ينفض نعله على عتبة كوخه، ويعد حذاء جديداً لرحلة أجد. الريحاني مؤمن بأدبه، واثق بأنه خلق أدباً جديداً رحمة بالناس، وقد أشار إلى هذا حين ناجى جبران يوم عاد إلى وطنه محمولاً: «جبران، أخي ورفيقي وحبيبي

إن للشهرة يوماً، وللحزن يوماً، والباقي للبنان،

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون الذي يضمك اليوم، وغداً يضمني إليه.

ومهما يكن من رسالة حملناها إلى الشرق وا لغرب فسوف ينصف الزمان.

ومهما يكن من أدب بدعناه ونشرناه رأفة بالناس فسيعدل المستقبل.

وإن ترابي، غداً، في الفريكة يناجي ترابك في الوادي المقدس.

ومن ظلال الصنوبر، الذي سيظلل ضريحي، سيحمل النسيم قبلات عطرة، صباح مساء، إلى ضريحك في ظلال الأرز».

إن شيئاً من هذا لم يكن. لا صنوبر ولا بلوط. قبر متواضع في العراء، حدّه شجرة أو شجرتان لا أذكر ما اسمها، وقد جمعنا رفاته في صندوق حين ماتت شقيقته سعدى، لنوسع لها في ذلك المدفن العائلي في (الشاوية).

يخلط أمين ـ دائماً ـ التصوف بالعمل المجدي، يقدم (بزوراً للزارعين) وهو كبير

الأمل بالغلة، ما تنكب عن صراطه قط. أغراه لقب الفيلسوف فطرب وانتشى ، ففلسف حتى في المواضيع التي لا تربطها بالفلسفة آصرة قربى. كان الإصلاح الديني هدفه الأسمى، وأولى معاركه ذلك الخطاب الذي أذاع اسمه بين الناطقين بالضاد. ألقاه ليلة ٩ شباط سنة ١٩٠ ، فهبت بعده ريح الأمين وكتب إليه البطريرك الماروني مجاوباً:

«ما قلتموه في هذا الشأن، وإن قلتموه عن مقصد حسن، فهو خاضع لتأويلات عديدة، يمكننا التساهل من حيث الطقوس والعوائد المذهبية، وأما الحقائق الموحاة من الله فلا يمكن التساهل بها مطلقاً... ثم إننا لم نستصوب ما قاله من اعترضكم، في هذه المناسبة، من الكلام الجارح الخارج عن حد الاعتدال».

ونوهت الصحف العربية في العالمين بجرأة أمين فاشتد ساعده ورمى. كتب «المكاري والكاهن» فارتقى في سماء الشهرة درجات، وأخيراً كتب «المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية» فبلغ الأوج، انقسم فيه الناس، فأصبح فيلسوف الفريكة عند بعض، والفيلسوف الصغير عند آخرين، ولكنه ظل يقول كلمته ويمشي.

ثم كتب بلغة شكسبير فعرفه الغرب كما عرفه الشرق وصار من كبار الكتاب في اللسانين السامي والآري.

الريحاني هو أبو الشعر المنثور في الأدب العربي، وهو الذي مهد الطريق لجبران وعبدها، ولكن جبران طار بهذا الأسلوب على أ جنحة رياح الفن والإلهام، ولم يقع إلا على أعلى الذرا.

الشعر المنثور بناء بلا زوايا، فيه جمال مطلق. له أعداء ألداء حيث وجد، فعدوه لعبة يتلهى بها المقصرون عن الشعر (الرسمي). وله أحباب أوفياء يرون فيه متعة لا ترى في الشعر المقيد. فلا بدع، إذاً إن اختلف القوم عندنا في هذا اللون الجديد؟ الأدب. أذكر لك قول ناقد فرنسي راح يتهكم بهذا الشعر متمثلاً بقول لافونتين بلسان الخفاش:

«أنا عصفور، وهذان جناحاي، أنا فأرة، فلتحي الجرذان!»

ومهما يكن من شيء فأدبنا العربي مديون لأمين بهذا اللون الطريف، إن النواة في أدب أمين محسوسة ملموسة، هو رجل كفاح قبل أن يكون صاحب خيال وشعر منثور مائع كشعر الذين قلدوا الريحاني «وأكلوا من جفنته، وشربوا من إبريقه، وناموا في خيمته». كان الريحاني في كل ما كتب رجل كفاح وإن رأيناه يتدروش حيناً ويتصوف تارة. وفي كل أطواره كان يشتد كأن النبوة خلعت عليه مسحها.

ما اشتد ساعد جبران وتوغل في أدغال صوفية الشعر المنثور، حتى رأينا الريحاني يطير عنها إلى قمة أخرى تاركاً لها رداءه كإيليا. فلم يقم منا، بعد الشدياق، من جالس ملوك الأرض والرؤساء مجالسة الند للند كالريحاني. حمل هذا النابغة العصامي لواء الشرق العربي في الغرب، وفاق الشدياق في المعترك السياسي بقلمه الأجنبي. أبدى للعالم وللمستعربين من بني أمه وجه العرب النبيل بكل مافيه من خطوط فارقة، وعلامات مميزة، فسمعت كلمته في أعظم نوادي الغرب وقصور الملوك والرؤساء. ظل أميناً لرسالته في الحقيقة والخيال ولم يحد عنها قيد شعرة، ومن قرأ جميع ما كتبته يده يرى أنه لم ينقض بنداً واحداً من بنود المحالفة الثلاثية. وإذا صح النبأ الذي نشرته جريدة البشير الغراء يكون الذي «انمسح» واعترف وتناول هو أخوه ألبير وصهره يوسف صادر وصديقه إبراهيم حتي. أما أنا فأقرر أن الريحاني لم ينقض حرفاً من المحالفة، فقد عرفته صلب العقيدة، ثم ظهر في تركته - ما ترك إلا الحبر والورق - ما صدق ما زعمت.

* * *

يسأل الكثيرون من الأدباء والمتأدبين عن المحالفة الثلاثية النادرة الوجود، وهذا الكتاب عاد إلي بعد هجرة طالت ثلث قرن، استعاره مني الخوري ي.ع. فراودته نفسه أن يمتلكه، وبعد أخذ ورد وتوسط محام صديق لي وله (ا.خ) رجع الخروف الضال إلى قطيعي، وهو الآن في مكتبتي، محوط باسم الله والحرية.

الكتاب يحمل هذه العبارة بخط الريحاني «هدية المؤلف إلى صديقه مارون عبود، الفريكة ٩ حزيران سنة ١٩٠٨». أجل قد صرت، بعد تلك الزيارة الطريفة التي تحدثت عنها في كتابي «مجددون ومجترون» بمناسبة الكلام عن فليكس فارس، صديق الأمين.

المحالفة الثلاثية كتاب رمزي تلبس فيه الحيوانات الجبب والطيالس: الحصان والبغل والحمار والثعلب والجمل والثور، ويتخلقون بأخلاقنا ويتحدثون بلغتنا، أما حكايته فهي أن هذه الأسرة الكريمة أشفقت من زوال مجدها وأبهتها واندحار عظمتها أمام البخار والكهرباء والقطار والأتومبيل. فدعاهم الحصان سيد هذه البطون والأفخاذ إلى مؤتمر يعقد في إسطبله ليبحثوا عما يدعم سلطانهم فلا ينهار. وكان اجتماع طريف تبادلوا فيه الأنخاب وشرحوا المعضلات الكبرى. فظهر في المجتمع الثعلب - هو أمين - فأنكر وجحد، وأنذر وحذر، وازدرى ما يحترم أولئك.. وأخيراً

أخذ الثعلب المتمرد بجريرة الكفار المارقين، وحوكم أمام المجلس كجاحد، وساموه أشد أنواع التعذيب. وأخيراً قضوا عليه بالموت - إلا إذا تاب ورجع واعترف وآمن بما جحد، ولكن الثعلب لم يرجع عن غيه:

الجلاد - ألا تريد أن تنكر اعتقادك إذاً.

الثعلب: إني أموت لأن الحيوانات نيام، أما أنتم فستموتون لأنهم سيكونون أيقاظاً.

فألقى الجلاد به في النار قائلاً: «فلتكمل مشيئة الله»

وكذلك قال الثعلب الذي يعتقد بالله وحده، ثم ظهر الأسد - المعنى هو الأسد الذي انتصر من سبط يهوذا. فخاطب الحصان والحمار والبغل: أطلب رحمة وليس ضحية، وقال وقال... ثم تلبدت السماء بالغيوم وغاب الأسد في سيارته عن الأبصار.

قد يقال ولماذا اختار أمين السيارة ألم تكن الطائرة أنسب؟ نعم يا سيدي. ولكن هذا الكتاب قد كتب قبل ميلاد الطيارة وذريتها الكريمة...

أما الحصان والبغل والحمار فذهبوا إلى إسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين. وبينما هم ذات يوم ينوءون تحت أحمالهم، على طريق السكة الحديدية، إذ صفر قطار العلم القائد عربات البخار الكهربائية والاختراعات ومر عليهم فسحقهم سحقاً، وتطايرت رؤوسهم وبقايا أجسادهم في الجو وتشتت أعضاؤهم المنقطعة على طريق التمدن الحديث.

قلت لك إن كتاب المحالفة الثلاثية نادر، ولهذا سبب لا بد من اطلاعك عليه. زعموا أن ناراً سقطت على مطبعة الهدى التي طبعته سنة ١٩٠٣ فاحترق. ومنهم من يغرب في الأسطورة فيقول: إن النار أكلته وحده، كما كانت تأكل الذبائح في عهد بني إسرائيل، ومنهم من قال: إن المطبعة والمطبوعات احترقت جميعاً.

سيان عندي هذا وذاك، إن جزة جدعون حكاية طريفة سواء إن ابتلت وحدها أو تبللت الأرض دونها، فكتابي عندي.

كان أمين حين كتب المحالفة الثلاثية رطب العود فصاحة وتركيباً، أما عقله فناضج، وهو في كل طور قلما بالى بسيبويه والفيروز آبادي، بيد أن لغته قد صحت في آخر العهد فعبرت بالتدقيق عما يجول في ذاك الرأس الكبير.

من حسن حظي أني عدته بعد كبوته المشؤومة، فرأيته في مستشفى ربيز ممدداً على سريره. خلت المصيبة هينة، ولم أكن أدري أنها النومة الأخيرة فلجأت إلى النادرة كعادتي معه، كلما التقينا، فقلت له:

أتركب يا أخي في الستين كما كنت في العشرين والثلاثين. فابتسم ابتسامة جارحةِ وقال: ماكل الوقعات تكون في الجورة، روح بقا.

فقلت له: كل البلاء فيها ومنها يا أمين... ورحت من عنده مطمئناً إليه حتى نعي إلي في عين كفاع، بعد مفارقته بأسبوع. ثم سمعت ما حف بسرير موته من أقاويل فتذكرت قوله: الكاهن والطبيب والمحامي ثلاثة عقبان من بيضة واحدة.

أما العقاب الأخير فما انقض على هذه الفريسة، لأنها لم تترك شيئاً، اللهم إلا ذكرى العبقرية الفذة الخالدة.

لابد من واحدة.

زرت مرة أم أمين، في غرفتها الخاصة، فكانت جدرانها معرض صور قديسين وقديسات كأنها حائط العازارية قبلما هدموه، كان قد ثقل سمعها فقال لي أمين بعد أن استعرضنا تلك الإيقونات وسميتها له بأسمائها، لأني اختصاصي: مارأيك يا مارون، سنبقى لذكراها بعد الوفاة هذه وهذه.

قلت: ولماذا أثرتهما، قال: لأنهاتخصهما بعبادة.

قلت: تريد أن تقول بعادة، فنكزني قائلاً: وطي صوتك.

وعدنا إلى الحديث معها فوعدتها وعد حر بالغفران الكامل عند الموت، بدون اعتراف ومناولة شرط الندامة بقلبها، فتهللت وتعللت. ولكني لم أبر بوعدي، فطالبني أ مين بذلك أكثر من مرة لأن أ مه تلح عليه - ليتك تقرأ الخطاب والجواب في هذا الصدد.

أما أنا فألحت كثيراً على السيد الفونزوبيرتي في المدينة الأزلية ليرسل لي باسم أرملة فارس الريحاني صورة الأب الأقدس حاملة بذيلها البركة الرسولية والغفران الكامل «إينارتيكلومورتيس» ولكن صاحبنا لم يرد جواباً، فتأكدت أنه نقل فلم يصله كتابي. ثم أكد ما ظننت رجوع الكتاب المسجل والحوالة وقدرها واحد وعشرون ليراً.

أسفت جداً لأن أ م أمين ماتت ولم تفز بهذه النعمة، وإن تكن قد لا تحتاج إ ليها لصلاحها وتقواها، والتقينا مرة بعد موت تلك الأم الطاهرة فقال لي أمين: ما قولتك، أتدخل أم أمين الديار السماوية بدون (باصك)... فأجبته: إذا قالت إنها أمك فمار بطرس لا يردها.

فانتفضت يد أمين - التي كتبت المحالفة الثلاثية فأصيبت بما أصيبت، وكركر في الضحك، وكان صمت...

وقصارى القول إن فيلسوفنا عاش حراً ومات حراً، وما أقل من ترافقهم مبادئهم كاملة حتى يبلغوا المأوى الضيق.

لست أزعم أنني أحطتك علماً بالريحاني، ففي ريحانياته وكتب رحلاته، ورواياته خير كثير وسوف نمر بها عجالى، كما مر أمين بالدهناء.

إن تآليفه أشبه بحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها القديم، ومنها الحديث، من زمن اليونان والرومان إلى عصر الإنكليز والأميركان، من الكبش والمنجنيق إلى الطائرات والدبابات، ومن المدى الحجرية إلى الخناجر الفولاذية، والسيوف اليمنية، إلى القنابل الديناميتية ـ لم تكن الذرية والهيدروجينية خلقت بعد ـ فيهاجم بها من مرامي حصنه كل من خفق برأسه أمام مرقبه العالي. ولم ينج الحكام والمستعمرون من قذائفه هذه فأذاقوه طعم التشريد والإبعاد.

أما أسلوب أمين، أسلوب الشعر المنثور وغيره، فله وحده ولا يد لغيره فيه، وبه غزا العالم العربي فترة من الزمن، فكان في كل قطر حلته ركابه منارة تتجه نحوها الأنظار، وقد أقرّ له بذلك أبطال الفكر وقادة الأقلام في كل قطر، حتى في لندن ونيويورك، كان أديباً عالمياً، وسفيراً عالميًّاً عربياً شرقياً ـ مسخراً ـ رفع رأس بلاده في أكبر عواصم العالم الحديث.

حيا الله تلك العظام الرميمة، فهي لم تسترح إلا في القبر.

أحب ذلك الوادي ـ وادي الفريكة ـ صغيراً، فنام على كتفه في (الشاوية) نومة الأبد.

طاب نومك يا صديقي.

في الريحانيات

ـ ١ ـ

نكاد نجد في كتاب «الريحانيات» ـ وهو بضعة مجلدات ـ شخصية أمين كاملة فلا يفوتنا خط من خطوطها الأصيلة، ولذلك قال لنا: «إن اعتقادي كامن بل ظاهر في سطور هذا الكتاب وأضعافها. فعلى القارئ أن يعمل الفكرة قليلاً».

لقد عملت بنصحه، وشكرته لأنه كفاني مؤونة عناء التفتيش عن عناصر شخصيته، وإن كنت لا أكتفي بهذا، بل سوف ألحق به في كل مكان فلا أدع مخرماً طلع به. أما الآن فنحن هنا، ولهذا أقول: كان فيلسوف الفريكة من رجال السمت وإن

لم يكن كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته كالقاضي أبي يوسف. فالذي يسميه غيري إلحاداً وكفراً وزندقة أسميه أنا «تبدّلاً». فليس أمين من المعطلة ولكنه مؤمن حر ترك بنيّات الطريق ليسير في الجادة. وما اتجاهه إلى الطبيعة وجعله منها هيكلاً له إلا ضرب من أكليريكية أخرى، وإن عده الناس مارقاً. هذا ما يسميه علماء النفس استعادة رغبات الطفولة. فأمين في أحلام يقظته يحقق فكرة لم تتحقق، فقد تكون (لقنته) أمه، صغيراً، أن ستراه يوماً خادماً لمذبح كنيسة مار مارون، جارة بيتهم.

ما كتب أمين مقال (أبرشية الفريكة) إلا مدفوعاً بالانفعالات الباطنية التي يخضع لها من حيث لا يدري حتى في تمرده. ففي عروق أمين شيء من دم خدام المذبح، فجد جده كان مطراناً يدعى باسيليوسن كما خبرنا الأستاذ جرجي نقولا باز، الأخصائي في تراجم الأدباء اليوم، ونصير المرأة سابقاً... فمن صلب ذلك المطران الجليل تمشى أمين في ظهور الأجداد حتى وصل إلينا، فتكررت «الرغوة» وأصبحت هذه «الصفوة» كما عبر الكاهن الجليل الأستاذ نعيمه ـ أحد الأبدال الأربعين المستقرين في لبنان ـ حين ابتهل مع أمين من أجله، وأجل نفسه، وأجل هذا العالم المنكوب برغوته...

لم تكن «المحالفة الثلاثية» إلا مجمع أبرشية فيلسوف الفريكة، عليه اعتمد أسقفها العظيم في تدبيرها وإدارتها روحيًّاً ـ لا تنس أنها أبرشية بلا رعية ـ أما (الريحانيات) فهي مواعظ هذا الحبر اللا طقسي لا يحيد فيها قيد شعرة عما رسمه في مجمعه الأول. وقد أعلن ذلك، أو جدد نذره، بعد ثلاثين عاماً، حين طبعت ثانية قصة «المكاري والكاهن» فقرر متابعة هذه الحرب العوان التي قامت طوال الحياة بدون هدنة تذكر، ثم دامت إلى أن أذن الله لهذا الجندي بالإجازة الأخيرة، وقد أجيز كما علمنا في ١٣ أيلول عام ١٩٤٠

لابدع إن ظل صاحبنا يناضل في هذا الجلاد، فهو يرى الثبات من الفضائل العظمى كما قال حين مات زعيم المذهب الدارويني في الشرق: «مات شبلي الشميل ثابتاً لاشك في اعتقاده، أو عدم اعتقاده، وأمره في الآخرة لربه».

نشأ الريحاني على كتف ذلك الوادي بين ذراعي والدة صالحة حصان، اتقد قلبها إيماناً فشع فضائل دينية لا تعرف الحدود، وبعد امتلاء رئتيه من هواء ذلك البيت العامر بوصايا الله العشر ووصايا الكنيسة السبع تنشق هواء أنقى تحت

الزيتونة عند خوري الضيعة. ولعله الخوري يوسف يواكيم الذي بخله أمين في قصته «المكاري والكاهن»، فهداه الصراط المستقيم مكافأة عن جميله، فمات المسكين في مغارة قزحيا، حيث منح الشهادة الفلسفية الكبرى ممهورة بطابع ذلك المعهد، مداس أبي القاسم الطنبوري.

أما حب الطبيعة الذي تعج به الريحانيات فغرسه فيه ذلك المحيط الواسع الطليق حيث قضى اثني عشر عاماً تناجيه الطيور الفصيحة من الحسون وغيره فتنسيه غطرسة معلمه القسيس. ركب الولد رأسه فهام بين أشداق الصخور المتبسمة عن الزهور البهية الذكية، فرأى في حضن الطبيعة جمالاً دونه وجه معلمه الكالح. وقد يكون هذا هو الذي دس في نفسه تلك البغضة للطقوس التي بشم منها صغيراً، فثار عليها كبيراً، ورب أكلة حرمت أكلات.

إن ما لمحته في الريحانيات يؤكد لي هذا، فحافظة أمين محشوة عبارات طقسية تراكمت فيها حين كان العلم كالنقش في الحجر، ولكن حجر أمين كان رخواً... فامحت المعاني وبقيت الألفاظ رغماً من التكرار الذي يزعم غوستاف ليبون أنه يصير الصدق كذباً. أما أنا فأرى أن الريحاني، وإن حمل على الطقوس حملاته العنيفة، فهو يعمل مثلها إنما بصورة أخرى، أي أنه يمثل الرواية عينها ولكن على مرسح في الهواء الطلق، وهذا صحيّ أكثر...

يخبر أمين أن في عروقة شيئاً من دم العرب ويعترف بعرقه الفينيقي بخطبة في صيدا. ثم يرى في كتابه ملوك العرب أنه عربي أميركي إنكليزي في شخصية لبنانية. وكل هذا التنوع، بل كل الذي صادفه من إعظام وإجلال في عواصم الدنيا لم ينسه الفريكه ولبنان.

أما كيف ضيع الفيلسوف إيمانه وشك منذ حداثته، فإليك ما يقول في ذلك: «وأذكر أني صليت مرة في نوبة غضب وحسد، فدعوت بالموت على ولد سبقني إلى نقطة مستحبة تظللها صخرة، وقد نبت فيها طيب البنفسج الغزير. وماهو إلا أسبوع حتى انتشر الجدري فذهب بحياة ذلك الولد رفيقي في اللعب. فنقمت على القديس لأنه استجاب طلبتي. وآليت على نفسي ألا أصلي له بعد ذلك وألا أجمع الأزهار باسمه. لأنه إذا كان قد سمع صلاتي، فما أحراه أن يسمع مني أيضاً صوت الندامة».

أفلا يستوجب ما رواه لنا الأمين أن نعده في الأبرار والصديقين ونذكره في الطوباويين ولاسيما بعد أن بكر في اجتراح العجائب... فقتل بمعونة قديسه وشفاعته

طفلاً بزهرة!! ليتك تماديت يا عزيزي في صلواتك الحارة المقبولة لتمحو بها العالم بعناية قديسك السميع المجيب... إن فيك يا أخي شرارة متقدة، إذا ما أخمدت قلبها اشتعلت أطرافها وهي التي قولتك: «أسفي على امرئ يدب حول جذور الدين في قيود من الإيمان صدئة». دنت بالحب العام فرأيت ناره طاهرة مطهرة، وسمعت، وحدك، جوزة أفقاً تناديك «وإن رقاع الإيمان مثل فلس الأرملة». ولكنك أنفت من هذه الرقاع فقلت: «وإن كان ثوبي مرقعاً، أو عقيدتي مرقعة، فلابد أن تأتي ساعة أنسى فيها نفسي فيزول انتباهي، فتبدو ذلتي».

وقد تقول أيها القارئ، بعد كل هذا: وما اعتقاد أمين؟ فأجيبك: إن اعتقاده كمعتقد أكثر الناس، والخلاف قائم بينه وبين مكفريه على الدرب لا على الطاحون، الفرق بينه وبين مكفريه أنه يرد الأمانة عيناً، ديناراً بطغرائه ونقشه، والصيارف يريدونه «فرطاً» ليعلق بالكيس منه شيء وإلا فما الفائدة... يريد أمين أن يتصل بالمعمل تواً، أما أولئك فيأبون أن يكون شيء له من هذا بدون واسطتهم.

يقول لنا أمين: «وأما دين أجدادي فقد كان في جيب قبائي يوم ركبت البحر مرتحلاً، ولكنه يقول أيضاً: السير في شوارع المدن الكبرى يذكر الإنسان بالإنسان، وأما السير في الوادي أو الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم». أما خلود النفس فيقول فيه: «نعم، أنا على يقين أن الفكر لا يموت والنفس لا تفنى»، وفي أثناء كلامه عن الشميل أيضاً يصرح: «ولا ريب عندي أنه سيكون من المقربين إذا آمنا بما أنزل في الكتب المقدسة. بل إني على يقين أنه أسعد حالاً اليوم - ولا عدمية لمن كان مصباح هدى في الناس - مما كان بالأمس». أليس لمثل هذا القول استحق أرسطو الوثني لقب المعلم الإلهي؟

أما صلاة أمين المؤمن فطويلة وإليك شذرة منها:

«أبانا الذي في السماوات كن معي في الحياة وفي الممات، وإذا زدتني قوة فزدني يارب تواضعاً، ولا تمت فيَّ فضيلة إلا لتحيي فيَّ أخرى. أنت منحتني عقلاً لأفكر، فإذا فكرت قليلاً فلا تلمني - إن وكلاءه الجبريين يلومون - خذني بحلمك الواسع يارب، وإذا طلبت منك الرحمة لعبادك في أرضك فاستجب يارب طلبتي».

وله صلاة أرفع من هذه كان يصليها في الصحراء وقد جاء فيها:

«إنك إلهي ولا إله لي الآن». وقد أجابه إلهه كما يقول: «إني نبض الحياة فيك، وروح الحب فيك، ونور الحكمة فيك، كن عليها أميناً فهي الألوهية ديناً ويقيناً».

فالريحاني، إذاً، مؤمن كبير حتى في ليالي شكه المدلهمة، لأنه لم يجحد المحرك الأول قط فقال في شعره المنثور يخاطب أخاه الإنسان: «في وفبك سر أبدي عظيم، لا يكشف الحديث من العلم عن غامضه ولا القديم. الجرذان في قبوك لا يعرفون إذا كان القبو ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين. لا يعرفون من شيده ولماذا، إنما هم يعيشون في زاوية منه، فيضاعفون نسلهم ويضاعفون بذلك عذابك».

وأما الشياطين، وهي عقيدة جوهرية جداً، فيقول فيهم أمين: «ليس هنالك شياطين غير بشرية، وعالم الجن هو عالم الوهم والخيال». وأخيراً يلخص أمين دينه بهذه الكلمة الواضحة: «لا دين لي اسماً ورسماً، ولكني أعتقد بالله أبينا أجمعين وأعتقد كذلك بالإخاء البشري».

فمما تقدم يتضح لنا أن الريحاني هو عدو التقاليد لا عدو الله والبشر، كما يحاول أن يقنعنا نفر من الناس. إن اعتقادي الراسخ بالله هو من تلك التركة التي أورثته إياها الأم، وهذا الميراث لا يزول منا حتى تزول ذواتنا.

يقول علماء النفس: إن الإنسان يتفلت من قيود الدين في دور المراهقة. وحسب تحقيق الأستاذ باز كان أمين في هذا الطور حين ترك دين أجداده على المرفأ في جيب قبائه كما صرح لنا... فشكراً لأمة الصالحة التي لقنته تلقيناً لا إكراه فيه ولا رعب حب الله والإيمان به. فليتعظ المربون وليعلموا أن الدين لا يعلم بالعصا. وكيفما كان شأن الريحاني فهو ذو عقيدة ثابتة وليس كالذي نظم في رباعياته خطرات أفكار الفلاسفة شعراً.

إن للريحاني معتقداً ما حاد عنه قط، وقد لخصه الشاعر العربي بقوله:

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم ... وما عليك إذا أذنبت من باس

إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً ... الشرك بالله والإضرار بالناس

أما ما يعتقده أمين في قصيدته المنثورة «ربة الوادي»، وخصوصاً في النشيد الخالد الذي نظمه في رثاء ابن أخته الطفل فأشهد أني عجزت عن فهمهما. تراءى لي أمين في القصيدة الأولى أنه أقدم من الهيولى، ولعله من لدات الله ورفقائه في المدرسة... وقد كانا يتنزهان معاً على وجه الغمر حين كانت الأرض خراباً يباباً. إنه وجد منذ الأزل وسيكون بعد الأبد. ولعلها شطحة صوفية مرت في سماء حياته مرور النيزك في ليالي الصيف.

وأما قصيدته في ابن أخته ففيها من هذه الطلاسم والعقد المنفوثة، ولكنها تفهم بعد إعنات الروية، لقد تكلم فيه وجدان شاعر كبير أبرز لنا كلامه في ثوب بهيج منمنم، وهكذا صار ذاك الطفل خالداً بلا جد ولا كد.

فـــــديوان ربك هذا الوجـــــود
وفـــيـه السـخيف وفـيـه البـديع
وأنت ابن أخـتي بيت القـصـيـد
وخـــالك شـــاعـــر رب الربيع

صدقت يا أمين، فما قصرت أبداً عن جون روسكين، فأنت شيخ مشايخ شعراء الطبيعة عندنا، لقد خلدت وخلدت كما خلد شكسبير (صاحبه) المجهول.

فمن هذه النوافذ التي رأيت خلص أمين إلى مقاومة التعصب الذي رآه شر الآفات في أمة تشعبت أديانها وتفرقت. كان لابد من حملاته المعهودة على الفئة التي هي ملح الأرض، فكانت الحرب بينهما سجالاً فكل ما كتبه في الريحانيات تفوح منه هذه الرائحة، تارة بالتهديد والتقريع، وطوراً بالسخر والهزء، وأحياناً بالتهكم، وآونة بالتصريح والغمز. مساكين (آباؤنا) رجال الدين فهم لا يكرهون جميعاً، ولكن القضية عند أمين قضية حرب وجهاد، فهو لا يستثني من المعسكر أحداً: إنها الحرب.

تذكر أنني قلت لك إن الريحاني من كتاب المعارك، وأسد كلام عرينه المنبر، يهاجم منه خصومه، فيبغتهم، ثم يدعهم وشأنهم كالمصعوقين، وفي كل مقام له مقال يثار حوله الجدال. اسمع ما جاء به أمه ـ وأمه أمته ـ عند عودته أخيراً إلى «أبرشية الفريكة».

«قالت الأم ـ وما الذي جئتني به بعد هجر طويل من البلدان التي سحت فيها؟..

ـ جئتك بسكينة الدهناء والنفود، تلك التي تملأ النفس ورعاً وخشوعاً، فتزول منها الهواجس كلها والهموم.

ـ لاتنفعني يا بني، لا تنفعني.

ـ جئتك بقناعة البدوي ومروءته، بشجاعة البدوي وحريته، باستقلال البدوي واطمئنانه..

ـ لاتنفعني يا بني، لا تنفعني.

ـ جئتك بالشمم العربي والإباء، ببساطة العيش وكرم الأخلاق، بالجرأة والبطولة في الشدة والرخاء.

ـ لاتنفعني يا بني، لا تنفعني.

ـ جئتك يا أمي، بفكرة سامية من المدينة الأوربية ـ العمل الصالح أصح الأديان

ـ وجئتك كذلك بحرية الفرنسي في ثورته، ونشاط الأميركي في عمله، وبإيمان الأحرار أجمعين بالحياة والناس.

ـ لاتنفعني يا بني، لا تنفعني.

ـ وماذا تبغين يا أماه، يا روح الأمة التاعسة الحزينة، ماذا تبغين؟

ـ رؤوس الإله الذي رأته عيناك ـ إله التفرقة والتعصب والشقاق، لا أبتغي اليوم سواها».

ـ ٢ ـ

وبعد تلك الجولات والحملات ينغمس أمين في المعركة حتى يستولي على الأمد. كان قصاراه أن يتساهل رجال الدين مع معادليهم في المذاهب، ثم سولت له النفس أكثر من ذلك.

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

هكذا قال شاعر البردة، وهكذا نرى الريحاني، فتطور واتجه صوب العمل المجدي فصاحب لسان الشرق، في مصر، يوم أقيمت لها حفلة تكريم في سفح الأهرام:

«أنا الشرق
عندي فلسفات ، وعندي أديان ، فمن يبيعني بها طيارات ،
أتحسبها سفاهة مني ، أو تظنها تجديفاً
قد يكون ذلك قد يكون
وهناك سر أهمسه في أذنك يا فتى الغرب
ليست الأديان والفلسفات ما تظنها
وليست ما تظن أني أظنها
فلا للحراثة هي ، ولا للتجارة ، ولا للسياسة ، ولا للتقشف

إنما الأديان والفلسفات كمصافي الماء

هي مصافي الحياة، تصفيها في الأقل من بعض الحشرات والجراثيم.»

فأثار هذا الكلام معركة نقد حامية الوطيس، فقال في ذلك أمين: «والعجيب الغريب أن ذكاء بعض الأديان والشعراء، كبا كبوة عند هذه الكلمة التمثيلية، فاستعاذ بالله من طمطمانيات الشعر المنثور، واعتصم منها بشيء من الأدب القديم العقيم، وبأشياء من السخافات في النقد والمبتذلات».

ولم تكن هذه المعركة بدون تطور سابق، فقد سبقتها هذه الكلمة في صيدا:

«الكتب المقدسة تصلح الحياة ولكنها لا تعمر البلاد، والعلوم المادية تعمر البلاد ولكنها لا تصلح الحياة. إذاً، كتبكم المقدسة احفظوها، وكتب العلم عززوها» (٧٦ ـ ٢).

إن الريحاني من المؤمنين حتى اليقين بعجائب التطعيم، ولهذا قال يخاطب تمثال الحرية النيويوركي:

«متى تحولين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية». وبعد نجوى قصيرة خاطب البواخر من على جسر بروكلين صائحاً بها: «خذي، خذي معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشي منها سواحل مصر وسورية وفلسطين وأرمينيا والأناضول، احملي إلى الشرق شيئاً من نشاط الغرب، وعودي إلى الغرب بشيء من تقاعد الشرق. احملي إلى الهند بالة من حكمة الأميركان العملية، وعودي إلى نيويورك ببضعة أكياس من بذور الفلسفة الهندية، اقذفي على مصر وسورية بفيض من ثمار العلوم الهندسية، وأقفلي إلى هذه البلاد بفيض من المكارم العربية.

أيتها البواخر الآيبة حيي عن جسر بروكلين خرائب تدمر وقلعة بعلبك، واقرئي أهرام مصر سلام هذه المعالم الشاهقة المشعشعة بالكهرباء. سيري أيتها السفن بسلام وارجعي بسلام».

ألا تهب عليك من بين هذه السطور نفحة من نفحات أنبياء التوراة، المبشرين بالويل والثبور.... ولو قرأت الريحاني بحذافيره لرأيت خيرات كثيرة، إنه في مكان آخر يصيح بأم ناطحات السحاب، ويسمي بناتها دمامل الأرض، وأخيراً يهتف بمدينة الدولار: «يانوير كليم يا نوير كليم. ليذكرنا بصرخة السيد المسيح، يا أورشليم يا أورشليم»....

والغريب من أمر هذا الرجل أنه صريح قاس يشتم سامعيه ولا يبالي كأنه نبي

له سلطان، فهو يريدهم أمة تجمع بين فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين، يريد لقومه حياة تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل، وقوة الروح، فينادي بالمذهب النيتشي الذي توكأ على عصاه الأستاذ الرياشي في درس نفسية الرسول الكريم. قال أمين: «وقد يأتي يوم يشاهد فيه أبناء الأرض رجل المستقبل العظيم، وقد ترقت فيه القوى الحيوية كلها، أي القوى الحيوانية والبشرية والإلهية، إلى منتهى الدرجات، فالإنسان مركب من هذه القوى كلها وهي كامنة فيه إلى الأبد. نعم إني ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة إلى أن يؤيد العلماء اعتقادي، فإني لمؤيده بما أعرفه وبما أجهله من لوح هذا الوجود».

ولصاحبنا تنبؤات سياسية صريحة نجدها في الصفحة /١١٥/ ومايليها من الجزء الثاني من ريحانياته وهي تدل على بعد نظر الرجل وشدة إيمانه برسالته القومية التي عاش لها ومات عليها.

لست أدري كيف أطبق بين قوله: «أحب أن تشع حياتي ولا أحبها أن تفرقع. أحب أن تكون كأحد الكواكب السماوية كسهم من الأسهم النارية»، وبين قولي إنه من كتاب المعارك. فما قولك، هديت وإياك، في هذا الحل الوسط وهو أن صاحبنا يفرقع ليدوم إشعاعه، ولهذا آثر أن يكون كلامه «كلام شاعر مفتون لا كلام متصوف مغبون».

أحب الريحاني الطبيعة في لبنان عامة وفي أدبه خاصة حبّاً فائقاً، ولكنه لا يدين بوحدة الوجود ليؤلهها ويندغم فيها اندغاماً لا ينفك، إن داء أمين لقديم، هذا الداء الذي لا يزيله الاستهواء والإيحاء، بل هو يشتد حنيناً إلى قوة ضاعت منه في وادي الفريكة، فيتبدل أسفه على الشباب الضائع حبّاً غريباً لتلك الصخور العابسة، فيراها أجمل من الأولمب وأبدع من الأكروبول. هاهو في مقاله «غصن ورد» يزرع حبه في سهول الحرية، في أنجاد العلم، على شط نهر الفلسفة، في غياض الحضارة وفي حقول التجارة، فيذوي ويذبل وييبس، حتى إذا ما زرعه في الأرض التي نقبها فارس الريحاني أبوه، وصلت تحت أشجارها أمه، على كتف هذا الوادي الذي ردد صراخه صغيراً، غرسه هناك فنبت ونطق أيضاً...

لقد صدق علماء النفس، فإذا كانت نزهة واحدة جميلة، كما قالوا، تجذب الطفل إلى الأبد، فكيف بمن ينشأ نشأة أمين الجبلية اللبنانية. ولهذا يرى أمين في العراء هيكلاً يوحي مالا توحيه جميع مباني الناس «إن في ورقة من أوراق التوت

سراً لا يكشفه اللاهوت. إلى الوادي إذاً. هناك بين أشجار البطم والزمزريق وتحت أدواح الصنوبر والسنديان أشيد هيكل الإيمان. أراني هناك في بيتي، في بيت الطبيعة، بل في بيت الله.

في ظل القويسة والغار، وبين الصعتر والوزآل الخنشار، وبالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء، وفوق النهر الجاري تحت قدمي هذا الوادي الرهيب، أبني لك أيتها النفس هيكلاً من الإيمان. يؤمه في المستقبل البعيد من إخواني والقريب.

بل أقيم فيه تمثالاً للوداد والإخاء، وأدعو إليه كل بشر تحت السماء».

ومع هذه الدعوة إلى الطبيعة، إلى دين السذاجة والبساطة فهو يترجى القيامة كالمؤمنين الرسميين تماماً، وفي هذا يقول مفتتحاً قصيدة من شعره المنثور كتبها تذكاراً لراحيل دريان:

«على أبواب الجنة تنتظر الأرواح أحبابها
بل تنتظر الأحباب أرواحها
آه على المحبين ، المودعين والراحلين»

وأمين يعلم حقّاً أننا مهما تطهرنا من الماضي البعيد، ومهما تعالينا بهمنا عن الناس، يظل لنا زملاء وأنداد بين السواد من الناس، فمن رعيان البقر والمعزى من يفهم ما نفهم، ويزعم ما نزعم، ولكنه لم يؤت منحة الأنبياء، فصاحة اللسان وسحر البيان: «إن في قلبي، اليوم، شيئاً من قلب جاري، وفي قلب الغاب أثراً من آثاري. إلا أن قلبي في عقل هذا القروي. وعقله في قلبي الخفي. والذي يراه هو تحت الكلاء أراه أنا في السماء».

اليوم وكل يوم يا صديقي، فمهما انتفضت وتنصلت فصبغة أمك لن تفارقك جميعها، ولهذا رأيت (المسيح خيرمن تألم في الحياة، وجنت الكنيسة ـ بعد القطيعة ـ لتردد مع الناس ذكر أمير الناس) وفي إحدى غفلات عقله اليقظ يسأل الريحاني المسيح قائلاً:

«سيدي، دعني ألقي على كتفك رأسي، فيذوب ثلج، فتوري ويأسي».

ألا ترى مثلي أنه يريد أن يكون يوحنا ثانياً، ففيه حيرة لا يكاد يعتق نفسه من عبوديتها حتى يجده في أغلالها، فهو كمن تسوقه عاطفته إلى حيث لا يريد، ويتم كلامه عما في نفسه الخفية، وهو يظن أنه ألقاها عنه كصحيفة المتلمس، وإليك الختام:

«وبينما أنا أكلمه ـ الضمير يعود إلى المسيح ـ في البستان أطل البدر من شرفة لبنان، فتركني ذو الجلال مكاني كالخيال، وذاب في القمر فوق الجبال».

فما تقول في (ذو الجلال) أليست من فلتات العقل الباطن. إذا كان الله يطلب كما علم السيد المسيح: يا بني أعطني قلبك، فصاحبنا أمين طوباوي من طغمة الأبرار والصديقين، فالعقل الخفي كالكنيسة البطرسية التي لا تغش ولا تغش....

إن فيلسوف الفريكة لا يجحد شيئاً، فمن آمن بالله واعتقد أن للجنة أبواباً تدخل منها الأرواح وتنتظر أصحابها عند أبوابها لهو مؤمن كبير يستحق التعظيم والتبجيل. وإذا كان الريحاني قد حارب طقوساً فهو قد دعا إلى طقوس، إنه لا يريد الإنسان هملاً، يريد كالمسيح هيكلاً لا بيع فيه ولا شراء، يريد أن يكون رواقياً من المشاة، لا أكاديمياً على المقاعد الثابتة...

يريد أن يحيي العبادة في برية جنشّار، وعلى بحيرة طبريا، وفي ضواحي المجدل، وهذا يثبت لنا أن صاحبنا يحاول أن يفلت فيقبض عليه عقله الباطن، وتنتصر الملكات والعادات المغروزة في أعصابه.

قال غوستاف لوبون: «لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجاً أبدياً. إن حب الاطلاع على الأسرار والاحتياج إلى التدين، وأمل الحياة بعد موت، مشاعر قوية لا تموت أبداً.»

أما صاحبه جبران ـ والريحاني سابق ـ فقد تنصل من الطقوس كافة في (نبيه) فلم يوص بالصلاة ولا العبادات لا في الوادي ولا على الجبل، لم يتخذ له كاهناً لا الحسون ولا الدوري..... وكلا الرجلين العبقريين خطب بنت المسيح الصغرى التي اسمها محبة. ومن آمن بالمحبة دان بدين البشرية الأسمى. ومن هنا انحرف أمين إلى الاجتماعيات فنادى الشرقيين جميعاً: فليحب بعضكم بعضاً، اتحدوا.

وأمين، حتى في اجتماعياته، عاطفي المنطق كرجال الدين يخاطب الوجدان لا العقل، فكأنه يعلم أن الجمهور يفكر بقلبه، وهكذا كان يستولي على الجماعات ويقنعهم إلى حين في غفلة من الملكات والعادات والتقاليد، حتى إذا تحول عن تخومهم لحقت به تعاليمه تلك إلى أبرشية الفريكة..

* * *

لست أزعم أنني أحطتك علماً بالريحاني، ففي ريحانياته خير كثير. إنها كما قلنا سابقاً، أشبه بحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها القديم ومنها الحديث،

من زمن اليونان والرومان إلى عهد الإنكليز والأميركان.... أذيق طعم الأبعاد فتألم، ولولا العجوز بمنبج ماخاف أبو فراس أسباب المنية... إن محبة أم أمين فرضت عليه الهدنة فسكت حيناً، وهو الرجل الضرب الذي عرفناه في معلقة طرفة، ولسانه أمضى من سيفه الذي إذا قيل مهلاً قال حاجزه قد.

أما الأسلوب، فأسلوب أبي الشعر المنثور له، ولا يد لغيره فيه، وبه غزا العالم العربي فترة من الزمن، فكان في كل قطر حلت ركابه كالمنارة فتتجه إليه أبصار الشعب وملوكه ورؤسائه.

إن أسلوب الريحانيات يفيض شاعرية وإن شابته، أحياناً، ألفاظ مرصوفة مرصوصة. وجمل قد تموت عند سماعها من الضحك، وتؤمن لأجلها بالبعث، إذ تراك تسمع لغة شق أنمار وسطيح.

في الريحانيات لونان من الأدب: لون، وهو السواد الأعظم، يغلب عليه الويل والثبور، لون يكتسي صبغة نبوية. ولون آخر فيه من سحر هاروت وماروت شيء كثير، وهو الناحية الشعرية من أدبه.

في اللون الأول يلبس أمين فرو عاموس، وفي اللون الثاني عليه طيلسان مطرز موشى بالأزاهر التي لم يلبس سليمان يوم عرسه كواحدة منها.

إن الريحاني ذو خيال واسع ونفس يتنازعها المرح والتزمت. سخر كلذع الزنابير، وهزء كلسع العقارب. أما التهكم الذي ترتاح إليه نفسك فلا تجده في «الريحانيات» إنه في «رحلات» أمين تلك الكتب الفريدة في أدبنا، والتي بينها وبين كشف المخبأ، والواسطة في معرفة أحوال مالطة أقرب النسب. الريحاني في هذه الرحلات واحد دهره بكل مافي هذه الكلمة من معنى، فهو في رحلاته التي سأحدثك عنها قصاص ومحدث لبق أوتي من قوة الإبداع البياني شيئاً كثيراً.

أما «اللحن» في إنشائه ففاش في «ريحانياته» وقد قل في كتبه الأخرى، وندر وقوعه في رحلاته. الريحاني في كتبه الأولى يقول لقدر القوم قد غليت، ولباب الدار مغلوق، وحدّ أبي الأسود جهنم... قد يجر المثنى بالألف ويرفع الحال، ويخفض التمييز، ويصوغ المضارع على هواه، ثم لا يضن بالتنادر على شيوخ النحو واللغة، ويتهكم بهم وبأنصارهم تهكماً مراً....

فلو كان صديقنا أمين في عهد عبد الملك بن مروان الذي قال لخالد بن يزيد: أفي عبد الله تكلمني، وقد دخل علي فما أقام لسانه لحناً، لما دخل عليه كما دخل على الحسين وابن سعود، وفيصل وغيرهم من أصحاب الجلالة.

إن الريحاني معذور فحسبه ما حصل، فهو أستاذ نفسه كما نعلم. إن كتبه لا تحتاج إلى تصحيح عنيف فأخطاؤه نحوية صرفية ليس غير. وجل من لا عيب فيه - كما يقولون.

أمين الناقد

إن النقد هو أبرز سجايا أمين الريحاني، فهو ناقد اجتماعي في خطبه ومقالاته، في كتب رحلاته وفي رواياته، وقلما خطت تلك اليد المتمردة حرفاً يخلو من نقد، وقلما تحدث إلى الناس ولم يكن للنقد المكان الأول في حديثه. وهو أيضاً ناقد فني للرسم والتصوير، فإذا شئت معرفة قدرته عليه فاقرأ تلك الفصول التي عقدها حول الفن الإسباني في كتابه «المغرب الأقصى».

أما النقد الأدبي فقد كتب فيه فصولاً طريفة في كتابيه: «ملوك العرب وقلب العراق». كان الكتاب يبعثون إليه بما ينشرون من كتب فيبدي رأيه فيها. ولما تكاثرت الظباء على خراش طبع أمين رسالةكان يملأ مافيهامن فراغ باسم المؤلف واسم كتابه، ثم يوجه تلك الرسالة - الكليشه - إلى أصحاب الكتب التي لا تستحق الاهتمام. أما الكتب التي يؤبه لها فكان يكتب إلى أصحابها مناقشاً منتقداً، وهو في كل هذا ساخر ماكر.... لم يقع في يدي شيء من تلك الرسائل لأنقل إليك أيها القارئ العزيز شيئاً منها، ولهذا آثرت أن أنقل بعض نماذج من نقده لشعراء العراق، وفي هذا النقد يتناول الريحاني شخصية من ينتقد بتصوير كاريكاتيري. قال في أحدهم.

«هو في السبعين من سنه ألزمني، وفي العشرين من سنه الشعري، وهو في المصائب أبوها وخالها. على أن السنين والعرج والدرد لا تفل من عزيمته، ولا تؤثر على نشاطه، ولا تجرؤ أن تدنو من صوته وقلبه وروحه. فإذا كان لا يستطيع أن يقف كالرمح فإن في نبراته رماحاً، وفي نظراته شراراً. يحسن المجون فيضحك حتى الجائع في جنازة، ويسترسل في الشجون فيبكي حتى إبليس. له لهجة الأنبياء وما يصحبها من آيات، ومن آفات... وله في التجديف لفظ شريف، وفي التهكم كلمات تبكم. فهو يفتل ألحاد الخيام بشكوك المعري ليصنع منها سوطاً لشيطانه ومطية لبيانه.

إن للزهاوي آثاراً شعرية نفيسة، وأنفسها في نظري وأحقها بطول البقاء قصيدته أو ملحمته (ثورة في الجحيم). فكأنه، وإن اقتفى فيها أثر شاعرين عربي

وغربي، دانتي والمعري، ليقف في المقدمة عند العتبة الأمامية الأولى، فهو يختلف عن المعري في رسالة الغفران وعن دانتي في الكوميديا الإلهية فيطرق الموضوع من باب جديد، وقد جاءه - أي الموضوع - كمسلم مشكك في إيمانه، وجاء فيه باللطائف والطرائف الفكرية والخيالية».

وبعد أن لخص أمين موضوع «ثورة في الجحيم» ووصف جبن الشاعر أمام الملكين منكر ونكير قال ناقداً: «فلا عجب إذا جبن وارتاع وفقد حتى لغة الشعر فنطق بالنثر المنظوم....».

ثم دل على ألفاظ النثر المنظوم وعد منها - لسوء حظي - و(فيه بثور) قائلاً: «إنها من مألوف النثر بل من الحشو أيضاً، أما الوصف فلم ير في وصف الزهاوي للجحيم شيئاً جديداً». بل جاء «وصفه للجحيم والنعيم وصفاً تقليدياً، صوره دكناء واستعاراته بائخة»

وقال في الشيخ رضا الشبيبي: «ومع ذلك فهو لا يزال في قيود اختارها لنفسه، هي قيود التقاليد أو بعضها في الشعر والدين. فإن كان قد نفض غبار النجف عن جبته، وعنكبوت النجف عن عمته، فهو لاينبذ - ولا أظنه يستطيع أن ينبذ - من عقله ومن قلبه ماورثه الشيعي العربي من الأجداد، أي الإرث الشعري الأدبي الديني، وهذا ما يميزه عن الشعراء الآخرين، فقد يكون أفق شعره دون آفاقهم اتساعاً، وقد يكون خياله مثل صناعته الشعرية من المقلد المألوف، ولكنه شديد الحس، صادق اللهجة، نقي الفكر، نقي العبارة، مع شيء فيهما من التجهم والقساوة، شاعر تقليدي يحترم الماضي، ويتورع للحاضر، وينظر إلى المستقبل بعين الرضا والاطمئنان، وقد يعد، وهو ضمن دائرة محدودة وإن ضاقت، من المتمردين.

في مجموعة متسلسلة من الشعر أشبه بملحمة وجدانية تتجلى روح الشبيبي في نضارتها ومتانتها، وفي يقينها وحيرتها، فهي تحلق في سماء الخيال والحقيقة حول رواسيهما العالية، فتثب من قنة إلى قنة ثم تعود سليمة آمنة إلى بستانها في (الكرادة).

وأخيراً قال في صاحبنا النجفي: «هو طير ولا كالأطيار، له منقار البومة وصدر الورقاء، وجانح الهدهد، وذنب الطاووس وله في الشدو هديل الحمام وصفير البلبل، وعندلة العندليب، هو طير غريب يدعى بين الناس بأحمد الصافي، ويعرف بالشاعر المجدد والشاعر البائس.

ولد في النجف الأشرف يوم كان الحسن الخلقي وا لصحه والنعمه تنثر كلها في الكون الأعلى، فما رمقته بنظرة ساعة الولادة، ولا دنت بعد ذلك من ملعبه، أو من رحله، أو من كوخه.

تنقل من كوخ إلى كوخ، ومن بلد إلى بلد، ومن مستشفى لا يشفي إلى مستشفى لا يرحم، وهو في كل أحواله مجهول غريب. كان يدعى عجميًّا في النجف، وعربيًّا في بلاد العجم، أقام بين البدو فظنوه من الحضر، وجاء سورية فظنه أهلها من البدو.

إنه لطير غريب عجيب، يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما، وهو كما ألمحت وليد برج النحوس، فالدماثة أمه، والبؤس أبوه، والسقم أخوه، والفقر ابن عمه. أما الروح منه فسليمة قوية.»

وتذكر الريحاني بهذه المناسبة حملته على الشعر الباكي فقال: «فإذا نحن حملنا على الشعر الباكي الذي ألفه شبان هذا الزمان، فإننا نحمل على التعمد والتعمل والتخنث في الشعر الباكي، نحمل على دموع الزور وعلى دموع الخوف والجبانة، وعلى دموع الشعراء السوداء، المكونة من الحبر الممزوج بماء العواطف الآسن. أما دموع هذا الشاعر فهي مثل ا سمه صافية، ومثل نفسه صادقة. وهي من نفسه ومن قلبه، لا من حبر شعره وتبره. ويقي أن أقول كلمة واحدة في آفة له شعرية تكاد تكون آفة الشعر العربي وخصوصاً في هذا الزمان - أي الإسراف في الخيال، وفي الألفاظ، وفي المعاني. فالصافي غير صاف في عقلياته، وماهو فيها بالمبتكر المجدد، وكذلك قل في قصائده الوطنية التي قلما تمتاز عن شعره من سواه.»

هذه فقرات من نقد أمين الأدبي أرجو أن تقدم للقارئ صورة عن هذا الكاتب الفذ الذي عالج مواضيع كثيرة في أغراض مختلفة وكان فيها جميعاً بارز الشخصية.

بين الجبل والصحراء

الريحاني المجاهد

عاد الريحاني من أمريكا أول مرة، ولا ثروة له إلا شهرة عاش مغبوطاً بها. عرفته آثاره العربية ببني أمه، وعرفه أبو العلاء بالأمريكان والإنكليز إذ ترجمه إلى لغة شكسبير. أضف إلى هذا شعره الإنكليزي الخاص وتآليفه التي خطها قلمه بلغة وطنه الثاني فكان بيته في الفريكة محجة للأدباء من غربيين وشرقيين يحجون إلى تلك الصومعة فيرون ناسكها الذي يهجرها إلى بيروت متى قرصه البرد، وإلى نيويورك متى قلّ الزاد... يحمل إلى صحف لندن ونيويورك ما يكفيه أجرة مؤونة العيش حيناً في الفريكة فيلسوفاً وناسكاً وشاعراً وأديباً، وسياسيًّا وعالماً، يراقب الدنيا عن كثب فيأخذ منها مادة المعرفة ليخرجها في خلوته صورة طريفة مبرقشة ببيانه الناعم.

نصب الريحاني ميزانه في الفريكة فوضع الصوفية في كفة، والعملية في الأخرى. لا ينظم لحسون الوادي وشحروره قصيدة حتى يعد قنبلة من ذوات الأطنان ليلقيها في بيروت أو إحدى الأساكل ضارباً بها حشد آفاتنا وجموعها. كان معمله في الفريكة يصدر إلى الصحف محصولات متنوعة بعضها روحاني يخدر وينوم، وبعضها عملي يثير ويهيج. فبينا ترى الشاعر يسبح في عالم الخيال فيطرب ويسكر، إذا بك تراه يناضل في دنيا الواقع. يهاجم حصون التقاليد المنيفة ليدخلها عنوة. وبينا تراه مائعاً في صوفيته اللا متناهية، حتى تحسبه أحد الأقطاب والأبدال ينادي ربة الوادي بأغانٍ وأهازيج كأنها اللغو والثرثرة، إذ به في المدينة يقف مؤنباً

وموبخاً هذا المجتمع ليهديه النهج السوي المؤدي إلى الحياة المثلى، ناشرا بين قومه ما يرى فيه تقويم اعوجاجهم. رآهم غرقى في اللجج الروحية فأيقظهم، ولكن بمنخس لاذع، وسوط قارص واصفاً لهم «المدينة العظمى» التي يرى فيها الحياة المثلى اللائقة بأمته.

ثم يترك المنبر ليتحول عن المدينة عائداً إلى عزلته يفتش عن حكمة جديدة ويعد قذيفة أخرى تكون «غب الطلب»... أما كفاه حياة في الغربة بين شعب لا يعرف معنى السكينة والهدوء والراحة والجمال، أما عاش طويلاً «بين قوم يأكلون ماشين، ويقرأون آكلين، ويعدون النقود راكضين، ويعبدون الأوثان نائمين قاعدين؟».

فكما تتناوح الرياح فتهب صباً مرة، وجنوباً تارة، وشمالاً أخرى، هكذا ترى عواطف الريحاني في تفاعل مستمر، ولكنها لا تتحول عن قطبها الذي ستراه. ما رفع علمه على قبة فلسفته برهة حتى قوض الخيام وآذن بالرحيل، إلى بلاد الدولار، لم يخص أمريكا بحنين ولكنه كان يؤمها مكرهاً لا بطلاً. يحمل إليها إنتاجه بلغتها فتمد له أسباب حياة مطمئنة تحت سماء الشرق التي فتنته صغيراً وشب هواه معها.

إن هذا الصوت الخفي لا يبرح يرن في أذن أمين. وهذه الدعوة السرية التي تنضج وتختمر في اللاشعور لا تفتأ تدعو الريحاني منذ سنة ١٩٠٨، وسيكون لها أعظم أثر في توجيهه. ففي صدر الريحاني تعتلج عاطفتان: ميل إلى الفلسفة والشعر، واندفاع إلى العمل المنتج، ولابد من أن ينفصلا ويكون منهما الخير الكثير للأمة العربية.

يعتقد الريحاني أن لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة، وفي كل نفس بشرية شيء من سماء البلاد التي نشأت فيها ومن أرضها، ففيها شيء من تبر وطنها وترابه، ومن خير هوائها ومن شره، من فتوره ومن نشاطه، ومن هدوئه ومن هياجه. وهذه الأشياء التي فطن لها الفيلسوف قد تفاعلت جميعها فوجهته في المسلك الجديد من حيث لا يعلم.

إن رجلاً كالريحاني يلتهم الكتب التهاماً ليعيش في بيوت الفريكة المتواضعة كما يعيش في ناطحات السحاب. فالرجل كان يحيا بعقله أكثر منه بعاطفته، في صدره طموح يدفعه دائماً إلى المثل الأعلى فيعمل أبداً ولا يمل.

عاد إلى أمريكا وكانت الحرب العظمى الأولى فسد بوجهه باب العود. فعاد إلى جهاده الأول هناك وراح يدعو أبناء أمته بمحاضراته ومقالاته إلى التجند مع

الحلفاء ليكونوا أصحاب حق في استقلال بلادهم متى وضعت الحرب أوزارها. ثم لم يكتف ببث هذه الدعوة في الولايات المتحدة بل تجاوزها إلى المكسيك فأخرجته حكومتها بناء على طلب حليفتها ألمانيا. ثم كانت الهدنة وإذا بشيء من أحلامه يتحقق... هوذا قومه العرب الذين حن إلى صحرائهم وباديتهم أمسوا أحراراً. لهم الملك وبيدهم السلطان فتصور مجدهم الرفيع وعزهم المنيع فأخذ ستار الصوفية ينطوي أمام عينيه، رويداً رويداً، انطواء ستار المسرح، ليظهر خلفه الأبطال الحقيقيون، وإذا بأمين يهلل ويكبر ويصيح حي على الفلاح.

وأعد نفسه لسفرته المترامية، إلى زيارة ملوك العرب المستظلين فيء النبوة، المجاورين للبيت العتيق، إنها أمنية طالما حلم بها وتاقت نفسه إليها وهيأه لها عقله الباطن من حيث لا يدري.

فأمين من عشاق الحرية الكبرى بنت البادية وربيبة العرب الغر الميامين. وقد قال في مقدمة كتابه «ملوك العرب»:

«في نيتي أن أهجر حتى هذا الوادي، في نيتي رحلة إلى البادية، إلى البلاد العربية، على هجين يبعدني عن كل مظلمة وعبودية».

ولكن تلك الرحلة المباركة لم تكن من ذلك الوادي أخي البادية بل من مدينة نيويورك. أمريكا دعت الريحاني إلى النضال والجهاد، والشرق دعاه إلى الصوفية، فلبى داعي النضال وما هجر إلا قليلاً من صوفيته. لقح تلك الصوفية بمصل العمل، وكر إلى ساحة النضال يطبب الأذهان والعقول باسم العلم والروح.

كانت للريحاني رسالة إنسانية عامة يبشر بها في وطنه قبل الحرب الكبرى، وماتلك الرسالة غير مكافحة جراد التعصب الديني الذي عاث وأفسد حقول الأذهان والقلوب، ما وقف على منبر إلا ليعلم الحرية والإخاء ويحمل على التعصب وأعوانه الذين يفرقون بين الناس لإنماء ثروتهم ونفوذهم ،فهمهم أن يسعدوا على حساب غيرهم. رأى أمين نفسه غريباً في وطنه الثاني وإن تأمرك. فتنبهت فيه نعرة الجنسية وطار شرارها، وظلت تتلظى في أحشائه مع الأيام حتى رأيناه رحالة يضرب في مجاهل المسكونة شرقاً وغرباً. ترك الناسك خيمته وجفنته وإبريقه، وصار كما قال الشاعر:

كأنما هو في حلّ ومرتحل

موكل بفضاء الله يذرعه

ولكنه لم يكن كذلك الشاعر المفتون، بل كان رسولاً اجتماعياً يؤدي أسمى

الرسالات وأنبلها. يزور أقدس أرض شرفها الله بخاتم النبيين وسد المرسلين محمد بن عبد الله النبي الأمي الأمين، صلى الله عليه وسلم.

هاهو ذا أمين في جدة يتنسم عبير البيت العتيق عن بعد، ويرى بعينه البقعة المشرّفة التي زحفت منها الموجة الكبرى تقاتل وتمدّن، وتطهر باسم الله الواحد الأحد، فحملت مشعل المدنية قروناً عديدة، وأتمت الثقافة العالمية، وحفظتها أمانة إلى الأجيال. زرعت في حقل العمران كل بذرة طيبة، فزها الدين وفاض العدل وأزهر الأدب والفن والعلم على يد أبنائها الصالحين. أولئك هم العرب الأحرار بالفطرة، وما عشقوا متحضرين غير هذه العروس الجميلة التي خطب ودها الناس في كل دور. فهنيئاً للفيلسوف الأمين حظه الخالد فهو حي مادامت الكتب في كتابه الحي «ملوك العرب» الذي كشف لنا فيه؛ بل لكل عربي في العالم، حقيقة إخوانه الذين يجهلهم.

ما كان أمين في كل ما كتب إلا مخلصاً يقول الحقيقة كلها. فبينا تراه معك يعطيك كل الحق إن كنت صاحبه، إذا به ينقلب عليك ليردك إلى الصواب إن كنت ضالاً. كل هذا ببيان خلاب وأدب جذاب وانتقاد يصلح ولا يؤلم. يعالج ويستأصل على حد سواء، وهو في كل حال يرمي إلى الإصلاح.

إن لكتاب ملوك العرب أجلّ قيمة في أدبنا المعاصر، فهو يعرفنا ما نجهل عن قومنا، ويؤكد لنا ما سمعناه عنهم، وعن أرضهم، يصف لنا العربي وشممه، وحريته وهممه، وصدقه وكرمه. يرينا أن الرياء لا يستطيب الإقامة تحت السماء التي ريحها نار، فما يعيش في تلك الأرض المرملة غير الصراحة التي يراها المتحضرون خشنة كحياة المتسمين بها ـ عرب البادية.

إن هدف كتاب ملوك العرب وغرضه الأمثل توحيد كلمة الأمة لرفع راية العرب. فقد وصف أمين فيه ملوك العرب أصدق وصف وأصحه، ووصف مجاهل بلادهم، وأبرز لنا مافيها من مشاهد فتانة، وحقق لنا ما كنا نظنه حديث خرافة عن «العربية السعيدة».

إن كتاب ملوك العرب إلياذتنا، لو كان شعراً، ففيه يلبس الواقع ثوب الخيال والفن، فيبرز للناس فتاناً مغرياً. فأفضل تكريم تسديه الأمة العربية إلى روح نابغتها الريحاني هو قراءة كتابه هذا، والسعي الحثيث لتحقيق آمال مؤلفه المجاهد، وقد تحقق بالجامعة العربية بعض حلم الفيلسوف الكبير، الداعية الأول للوحدة العربية. لقد عاش وطيد الإيمان بفلاح العرب ومات على هذا الرجاء.

رحمه الله، وحقق آمال الأمة بتحقيق الأمل الذي مات عليه.

ملوك العرب

الريحاني القصصي . حاول الريحاني أن يكتب القصص طويلة وقصيرة فأصاب الهدف الاجتماعي ولكنه ما دنا إلا قليلاً من القصص الخالص، ولم يبرز في القصة كما برز في الرحلات ففيلسوف الفريكة كاتب موهوب حسن القص، وهذا الحسن قد كان رائعاً في رحلاته، وسطاً في قصصه. كان يعنيه المغزى من رواياته أكثر من الفن، فقصر روائيّاً فناناً وبرز كاتباً مصلحاً.

كتب أولاً المحالفة الثلاثية والمكاري والكاهن، وتطاول بعدئذٍ إلى الرواية الفنية فكتب «خارج الحريم» و«زنبقة الغور» و«سجل التوبة». وفي هذه المجموعة الأخيرة التي ظهرت حديثاً في سلسلة اقرأ، انقاد الفن لأمين في بعضها ولكن القصّ في هذه جميعها هو دون القص في كتب رحلاته، وخصوصاً كتاب «ملوك العرب».

ملوك العرب ـ فلندع الريحاني يحدثنا عما أوحى إليه بهذا الكتاب، بل بملحمة العرب التي هي نسيج وحدها. قال أمين في مقدمة كتابه:

«الأجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ولاشك بلاد أجدادي، ويخاطرون بأنفسهم فيها حبّاً بالعلم، فيكشفون منه المخبأ ويجلون المصدأ، ويقربون البعيد ويغربون في اللذيذ المفيد. وأنا في نيويورك كئيب يحمل كتاباً، ويطرق للمحرر الإنكليزي المتغطرس باباً. أديب شعره طويل، وصدره عليل، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات. آلة كاتبة يرقص حولها الهم والأمل متخاصرين. أف لها من زوجة نقاقة. ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة. وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة وأخبث! طلقتها ثلاثاً، وعدت إلى بلادي أعد العدة لرحلة تبعدني عنها وعن الكتب والمجلات، والأدباء والأديبات.

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها. كسرها ذات يوم فأثار السلطة عليه فصفع السلطة وفر هارباً إلى الفريكة، فحل فيها أهلاً، ونزل سهلاً ـ سهلاً في القلوب ومنحدراً في الوادي. أقام محمد كرد علي عندنا أسبوعاً عددناه من شوارد الزمان.

الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين، سمعني صديقي ـ كرد علي ـ أردد ذات يوم هذه الكلمات فقال: لا تنخدع يا أمين، الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد، وللظلم أسياد رعاديد. لا بأس بالهمس: والحمد لله. ولكنك إذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلي.

قلت: صدقت، وفي نيتي أن أهجر حتى هذا الوادي. في نيتي رحلة إلى البادية، إلى البلاد العربية، على هجين يبعدني عن كل مظلمة، وكل عبودية.

فهلل صديقي وقال: نسير سوية، واتفقنا يومئذٍ على أن نستعين بتجار من نجد في الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية إلى أهلهم وراء النفود ».

ولكن هذا الحلم لم يتحقق فذهب الأستاذ كرد علي فاراً من سورية إلى أوربا، وعاد أمين إلى نيويورك حتى كانت الحرب العظمى وانقضت، فعاودت الريحاني أحلامه بزيارة العربية السعيدة، فكان حظ العروبة كبيراً إذ أثمرت تلك الرحلة هذا الكتاب الفذ، وكان حظ الريحاني كبيراً أيضاً لأنه كتب كتاباً خالداً ومخلداً.

في هذا الكتاب نثر وشعر، وفيه فكاهات وطرائف، وفيه سياسة واجتماع، وفيه دعوة صارخة إلى تعزيز القومية العربية باتحاد ملوكها، إنها النواة لفكرة «الجامعة العربية» يوم لم يكن يحلم بها أحد.

ترجم فيه أمين لثمانية هم ملوك أو كالملوك، بل فلنقل بلغة الريحاني: «ولكنهم ملوك وإن اختلفت الألقاب، مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصيّاً بعضهم بعضاً. لا تجد بينهم من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة، أو يعرف من الأقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه»

ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها، وليس فيهم من يستطيع أن يقول: إني أعرف بلاد العرب وسكانها وحكامها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية وال... وال إلخ.

في كتاب ملوك العرب وصف بل تصوير ناتئ الخطوط للملوك الذين زارهم أمين، وأحاديثه معهم ترينا نفسية كل ملك منهم ومقدار مواهبه في كل ميدان. وصف لنا عاداتهم وطرق تشريفاتهم، وبالاختصار لم يدع شاردة ولا واردة لم يسجلها يراعه الطريف الظريف. وصف العربي وصلابته، ونقل شذرات من أحاديثه الطريفة التي تدل على ذكاء متوقد، وبلاغة عرف بها.

«البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون»...

هكذا قال الملك حسين. أما أمين فما أجمل تعبيره وتحديده لسذاجتهم حين سماها الجهل المسلح. إن لأمين كثيراً من هذه التعابير الطريفة، أحب أن أنقل للقارئ شيئاً منها قال: «لم أتمالك مرة أن أظهرت دهشتي، وبيدي آلة التصوير إ ذ رأيت

إحدى النسوة تنزل من الجلبوت إلى المياه، وقد شمرت بكرم فضاح، فقال رفيقي: شيء مألوف: خذ صورتها ولا بأس. فصورت آية النشور، أما الوجه فمحذور.

وقال في رجل من الهندوس: إنه من أصحاب السراويل الشفافة التي تهف حول الجنبين وتبوح بكل أسرارهما.

وقال يصور شاعراً يجله ويحترمه: «وقد اختبأ تحت الشوارب جل ذلك الفم البليغ الذي هو ختم الغم إذا سكت، وباب الصواعق والأضاحيك إذا تكلم. أما الأنف فمنبسط الأطناب مستريح تحت عين دامعة. أما ثيابه فإفرنجية ولكنها كذلك حرة أبية، بنطلونه كالكيس حول الساق».

وهو لا يحرم أي موضوع من مواضيعه من مثل هذا الجمال الفني، فقال في نساء الزيود المجدورات: «وأكثرهن يحملن في وجوههن نبأ حسن ذهب فريسة الجهل والوباء»

كان غرض أمين من رحلته سياسياً وقد حاول تقريب قلوب ملوك العرب، وكتب بينهم معاهدات ولكن كل هذا لم يثمر، ولذلك أراني مهتماً للون الكتاب الأدبي أكثر من لونه السياسي. سيقال في غد: لم يفلح أمين سياسيًّا، ولكنه أحدث في كتب الرحلات أدباً وفنًّا كان السباق إليها أحمد فارس الشدياق ولعل الفرق بين النابغتين هو أن الشدياق كان يكتب بالقلم العريض، أما الأمين فيكتب بإبرة الستيلو الدقيقة... لقد تماجن أمين وتهكم ولكن من وراء ستار شفاف يدل على محاسن القوام ولا يكشف العورات.

عرفنا بالبلاد العربية أصدق تعريف، فمن منا كان يعلم أن لبنان يضيع في جبال اليمن وأوديته المترامية الأطراف. وأن الطير نفسه ليتعثر بسنام الصخور والقنن، وأن الطائرة إذا حلقت فوقها تضل السبيل في ما يشبه تحتها أمواج البحر.

وينقلك الريحاني من بحث طبيعي إلى آخر صوفي، وفي هذا كله تلمس العنصر الشعري والنثر الفني، فتقرأ ما كتب وتصدق كل ما قال. قال يصف الأكل عند الأدارسة: «وكنت أشتهي بعد سفّ شيء من الأرز بقعة خضراء أرعى فيها، وأشتهي قبل كل شيء الماء فأجده في النعارة فاتراً، فأصبه في الكأس فإذا هو أصفر اللون، فأغمض عيني وأشرب باسم الله أما كرم الأدارسة فما كان ليخلّ قط بقاعدة الضيافة عندهم - قوزة كل يوم.

أغدق الله عليكم أيها الأفاضل، وبارك الله فيك يا جيزان، بركة تشمل من أجل أسيادنا بني إدريس آلة لتصفية الماء ومعملاً للثلج...».

قلنا إن الريحاني ساح في سبيل الجامعة العربية، وهنا لابد من نقل كلمة حول الموضوع، وهي من حديثه مع السيد الإدريسي. قال الإمام:

«المسألة بيننا وبين الشريف ـ أي الملك حسين ـ قريبة ميسرة، نحن أولاده، نحترمه ونجله، ولكننا نطلب منه أن يبادلنا الاحترام. قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ﴾، اها، ليسألنا، يشاورنا، نعم، هو لنا بمثابة الأب ونحن أبناؤه الرائدون. عندنا حكمة، اهًا، حكمة في الدين، حكمة في السياسة، وعندنا قوة. القبائل في يدنا.....والله لا تمر أربعة أشهر على المعاهدة ـ المعاهدة التي وضعها الريحاني ـ إلا نكون أصلحنا الأمر بينه وبين ابن سعود، فتسير القوافل آمنة إلى مكة والمدينة».

قال أمين: واغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود، فقلت: إذا أصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد، فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم وبين الإمام يحيى، فتتم بذلك المحالفة الرباعية، وهي كما أظن حجر الزاوية في الوحدة العربية.

فقال سيادته: هذا كلام حق. ولكن الأمر بيننا وبين ذاك الرجل بعيد.

ـ وليس على الله، يا مولاي، أمر عسير.

ـ نعم صدقت. وما نحن يا حضرة الأديب بعيدين مما تروم، ولكن ذاك الرجل أضرَّ بنا، أضرَّ بنا والله ضرراً جسيماً، ونحن نفعناه، وكان نفعاً مجرداً عن كل ضرر وغش. أما نحن والملك فقد كان النفع والضرر بيننا منادمة، لذلك ترى الأمر قريباً بيننا» انتهى.

لقد شغلتنا السياسة عن الاستطراد ولكن من كان مثلي لا ينسى. قال أمين: إنه اشتهى بقعة خضراء ليرعى فيها، فهاكه حقيقة يرعى، قال: إن أبهج ما يشاهد الإنسان في الصحراء بقعة أرض خضراء، ولكن الحيوان ذا السنام كان أو ذا القرون، يشارك الإنسان في هذا الابتهاج. وقد تبارينا كلنا حول البرتيسة التي يدوم اخضرارها طيلة السنة.

جاءني مبارك، وهو نباتي الحملة ببضع وريقات خضراء يقول هذا الحنبصيص. ثم جاءني بعشية أخرى سال لمرآها اللعاب، الرشاد، وهو في بادية نجد نفسه في لبنان لا يتغير اسماً ولا طعماً، فتبعت مباركاً إلى مواطن المرعى الطيبة، ورحت أرعى فيها كالبعير، بل رحت أدب على الأربع مثل نبوكد نصر، آكل الحشيش، وأشكر الله ثم الست زبيدة ـ لأن الكلام بمناسبة السكة التي عبدتها للحجاج ـ فانتعشت وابتهجت حواسي كلها. فصرت أظن أن الرّشاد والحنبصيص فعلا بالحمى

ما عجزت عنه الكينا. على انني، في رجوعي إلى الأمل ولو ساعة، أصلحت ليومين ما أفسده الوقوف على الشمس».

ويرى أمين تجارة الرقيق فتور لها ثورة ريحانية يختمها بعبارات قاسية انتقى منها: «إن من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب إنسان، أجل، وإن أمة لا تستنكر النخاسة لأذل في عين الله ممن لا يعرفون الله وأحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة، ويأكلون لحم الإنسان.»

ولما رأى عدن وقد تقلصت عنها الروح العربية، وقف وقفة أشعيا وأرميا يسأل عن الأمجاد الدارسة ثم لم تفارقه حكمته فقال: «ولكننا في زمان سيده المال وحاكمه الاقتصاد، ومديره الأول العلم. ليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم إلى وظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الأكبر».

ثم تعاوده نوبة التنبؤ فيهتف: «ولكني أخشى والله من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق - الشرق العاقل، والشرق المجنون، والشرق المتعصب، والشرق المتساهل - ينهض نهضة واحدة على المدنية الأوربية كلها. بحذافيرها، لأنه لا يرى فيها غير سيئاتها غير الشره والشهوات، والاستئثار والمنكرات. بودي إذن أن تأزف تلك الساعة، أن يعدل الأوربي ويعقل الشرقي، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان، وينتفع الواحد بالآخر ومنه».

وقد أراح سلطان لحج فيلسوفنا الريحاني من الكلام عن التعصب الذي حاربه أمين طوال حياته. فقال فيه أشياء كثيرة.

وفي مطلع الجزء الثاني يعدنا أمين بالصراحة كلها على شرط أن يكون فيها دائماً شيء من الفائدة أو الفكاهة. فمن فكاهاته الطريفة في هذا الجزء وصفه رجلاً اسمه مسفر: «مسفر هو مدير الحملة ورئيس الخدم، وهو في شكله نكتة مضحكة جداً قد لا تليق في مجالس المتمدنين. وجه عفن وهو يظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء. فهل يصلح الماء والكيمياء أنفاً تسطح على خديه، وفماً تطاول إلى أذنيه، وجبيناً داس بشعره حاجبيه، وعيناً جاءت من القرد إليه؟ أما لبسه فهو آية في البلاغة والإبداع. لا يعرف أنجدي هو أم حجازي، أيماني أم عراقي. حذاء مرقع تخض رجله فيه. وسروال كان أبيض لا تظنه غسل في عهده أو في عهد أبيه. فوقه معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركي، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والأسياخ، إلا أنه عندما يركب على بعيره الأسود فوق

أحماله، يبدو ككيس من الأكياس. إن للمعطف الذي كان يلبسه مسفر جيوباً هي دكان بما حوت. أتبغي خيطاً وإبرة وزراً، أتبغي ملحاً أو بهاراً أو شيئاً من مسحوق الليمون الحامض؟ أتبغي رقعة تمسح بها فنجاناً أو تضمد بها جرحاً؟ أتبغي قلماً وورقاً لكتابة؟ سمعاً وطاعة.

دهشت الدهشة الكبرى ولم أتمالك أن ضحكت عندما أشار إلى رأسه كأنه يقول: مسفر لا ينسى شيئاً. ثم أخرج من «دكانه» مرآة صغيرة قدّمها لي لأرى وجهي وأحكم وضع عقالي قبل الرحيل.

هو ذا حقّاً أقبح خلق الله صورة وأجملهم نفساً وذوقاً. فقل تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم، فهو إذا مسخ الإنسان قرداً يهبه من الجمال الخلقي والروحي ما يندر في يوسف الحسن وزين العابدين».

ولا تظنن أن الأستاذ لا يحسنْ المدح بَل اقرأ ما يقولَ في ذمة الأعرابي: «وأية ضمانة يقدمها البدوي للتاجر؟ قسمه الله. فهو إذا غاب عشر سنين وعاد إلى الكويت وليس معه غير جمله، يجيء به إلى التاجر قائلاً: هذا حلالك. وإذا مات الأعرابي قبل أن يفي ما عليه، وكان قد نما ماله، أي مواشيه، يجيء أحد أبنائه أو أنسبائه بما يكفي منها لتسديد الدين أو بعضه فيقدمه للتاجر قائلاً: هذا حلالك من فلان. ترحم عليه».

وفي الكويت يتدخل أمين لإصلاح ذات البيت بين نجد والكويت فينجخ ويجيبه العاهل السعودي: «أما مسألتنا مع الكويت فهذه تحل قريباً حسب رغائب الجميع، وعلى أحسن ما يكون إن شاء الله»

ويبلغ الريحاني البحرين فيقف عندها وقفة المؤرخ المحقق فيقول إنها مهد الحضارة والشراع، وإن العرب والفينيقيين من أصل واحد، وإن في خليج العجم صور وجبيل كما في فينيقيا، وبعد أن يجول ويصول يقول للقارئ: «قد انتهجت في كتابه هذه النبذة ما أظنها الطريقة المثلى في التاريخ. فغربلت الحوادث واخترت منها الأعم والأهم، وعلقت عليها في بعض المواقع تتميماً للصورة الذهنية. صورة المكان والزمان والأحوال، واجتنبت، أولاً وآخراً، الإطراء والإطناب، فوصفت الرجال بما تمليه أعمالهم على المؤرخ.»

إن التاريخ هو غير السجع، يجب أن يكون للتاريخ عينان، وعقل ووجدان، ولا بأس إذا كان له شيء من البداهة والتصور أما القلب فلا حاجة لي فيه ولا يجوز. إن التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له».

وبعد أن يتبسط في الكلام على البحرين وحالتها السياسية راح يبدي اراءه المبنية على ما رأى وشاهد في هذه الرحلة: «وقد علمت مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها أن بلية العرب الكبرى - كانت ولا تزال - هي النزوع في كل قبيلة، بل في كل عشيرة، إلى الاعتزال والاستقلال. لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه في بعض الأقطار المذهب الديني. لا يخضع العرب من مبدأ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه في بعض الأقطار المذهب الديني. لا يخضع العرب بعضهم لبعض إلا كرهاً، ثم ينزعون إلى السيادة المستقلة إ ذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. الجهل أيها الأدباء هو عدو التضامن، والجهل المسلح أيها الأمراء هو عدو كل رقي وعمران.»

ثم يتوجه إلى الإنكليز بالنصح فيقول: «إن السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب. هي تضر بمصالح بريطانية العظمى ليس في البلاد العربية فقط بل في الشرق أجمع، وتضر بالاسم الإنكليزي وكل ما يرمز إليه من أدب وعلم وكرم أخلاق وسياسة».

ويدخل العراق فيصف وصوله إ ليها بطرافة وقومية ريحانيتين فيقول: «عندما وصلنا إلى البصرة صعد إلى الباخرة موظفو الجمرك والصحة والشرطة وأكثرهم من الهنود.... وكنت قد أرسلت تلغرافاً من بمباي إلى صديق لي في الديوان الملكي عله يأمر في البصرة من يلاقيني ليهديني في الأقل إلى محطة سكة الحديد، فوجدت نفسي، ولا أحد يسأل عني، أغرب في هذا البلد العربي القديم مني في كارتشي الهندية، وأنا العربي الذي قضى الأيام والليالي ويطالع الحريري والجاحظ، ويطحن كريات دماغه في طواحين الكسائي وسيبويه. أراني قد نزلت من الباخرة بين قوم لا أفهم لغتهم. فيكلمني الحوذي بعربية يضطر أن يترجمها إلى شيء من الإنكليزية يفهم. هو أيضاً هندي. ساق جواده الأعرج يجر عربة مكسورة، وفيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني».

وتذلل العقبات ويبلغ الريحاني بغداد ويلتقي بفيصل فينسى آلامه وتباريحه. تسقط الكلفة بينه وبين الملك الشاب، وبعد أن يجلسا متقابلين في مآدب شتى يصف لنا أمين فيصلاً: «الملك فيصل أقرب ملوك العالم اليوم إلى الديمقراطية. لا أظن أن ما يسود الملك فيصلاً اليوم ناتج عن همومه الحاضرة فقط. لا أظن أن تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة، وذاك السكوت الذي يسبق الكلام إلى

القلوب. إنه في مالمع من نجم سعده وهوى في السبع السموات الأخـرة، لمن الأمراء القليل عددهم في العالم السوء فقد دالت له ساعة قصيرة من الزمان، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه، فلم تتمكن لسرعتها من الانتفاع بها».

«هو ذا أمير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة، دائرة حمراء من السياسة الوطنية، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية، وهذه لعمري حقيقة مأدب الغم ـ مأدبة الشهرة التي يتلوها وجع الرأس، ومأدبة النصر في الحرب يتلوها فشل في السياسة، ومأدبة الكرم العربي الممدودة فوق ضريح المطامع العربية».

إن في هذا المقطع لأصدق تصوير للحالة التي كان الملك فيصل يتخبط فيها ولم يستطع الخروج من دائرتها، حتى كانت مأساة موته، وكم في الموت، أحياناً، من راحة، ولكننا نسخط دائماً على الموت ولا نقدر له تلك اليد البيضاء التي يمدها إلينا في الساعة الحرجة.

وبعد أن عرّفنا الرحالة إلى الكثيرين من رجالات العراق قال عن (المس بل):

«هي شبه وزير دار الانتداب، فينبغي لي أن أفسح لها في هذا الفصل مجالاً. ولا أظن أصحاب المعالي الوزراء يستنكرون أو يعترضون: جاءت ـ المس بل ـ الشرق الأدنى سائحة طالبة علم، وجالت في البلاد العربية وآخت العربان، تعلم من أمور العراق وعشائره ومشايخه وأشرافه وتجاره والسياسيين فيه ما يندر أن يعلمه سواها. امرأة طويلة نحيلة جليلة، تكاد تكون مجموعة أعصاب وأفكار، هادئة الإشارة واللهجة، هادئة البادرة، يتغلب في حديثها العقل، وتتغلب في عقلها السياسة. وهناك شيء من القلب، بل أشياء ناضجة مستوية. طريقة المس بل السياسية قديمة، وهي مع ذلك لا تركن في الأمور لا لعقلها دائماً ولا لقلبها. لا تجبه العراقيين دائماً بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة، بل تجيئهم مراراً وهي تحمل هدية بدل القضيب.... هو ذا قلبها عربون إخلاصها أيها الزعيم الوطني. هي أم المؤمنين يقيناً. وإذا رفضت الهدية والمشورة، إذا أبيت النصح والامتثال، فهو ذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت إلى يوم وقفت مستعطفاً أو محتجاً في دار الانتداب».

ولا يحرم أمين شعراء العراق، وكلهم أصحابه، من فصل خاص بهم، وكذلك فعل في (قلب العراق) وقد أريتك نموذجاً من نقده. والآن يطيب لي أن أنقل لك أسطراً أفتتح بها الفصل المعنون (أصحاب القوافي)، قال: «لولا الشعراء في العراق

لسئمت السياسيين، ولولا الساسون لفررت هاربا من الشعرا ، وبكلمة أوضح لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين بيد أني مشيت مثل البهلوان على حبل الاحتفالات والتكريم، أحمل بيدي خيزرانة التوازن وفي أحد طرفيها أكره السياسة وفي الآخر قيثارة الشعر».

أما رأيه في شعرنا فقد عبر عنه بقوله: «إن الباحث اليوم في أحوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى أن للسياسة والدين الشأن الأول في الشعر، بل في أمورهم كلها. أجل إن في مصبغتي السياسة والدين تصطبغ الأقوال والأعمال والآمال، فيندر الشعر الصافي والنثر الأدبي في ما ينظمون ويكتبون»

ويمر على المدرسة مرة عجلى فيقول: لم يبق إذاً غير المدارس نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية، وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة. هي البودقة التي تتكون فيها الروح الوطنية الجديدة، بل هي سياج الوطن، وفيها عز الملك وشرف الأمة. ولكنها لا تكون كذلك، لا تفلح في التكوين، إلا إذا كانت البودقة واحدة لا تتغير في تغير المكان والمذاهب واللغة. إن أمة تعددت شعوبها ومذاهبها الدينية، ولغاتها لا يتكون منها وطن عزيز الجانب، رفيع الشأن، مهما كان جيشها، ومهما كانت ثروتها، إلا إذا أسست الحكومة فيها مدارس عامة، مجانية، لا مذهبية، تتمشى كلها على برنامج واحد، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة لغة البلاد الأصلية».

وختم هذا الكتاب الخالد بالكلام عن الوحدة العربية التي هي نقطة الدائرة فيه حتى خلص إلى القول: إن في البلاد العربية اليوم أربعة ملوك كبار، وإن في نفسية الرعايا رعاياهم نصاً على شخصية أولئك الملوك وشرحاً على حالة تسود سياستهم في البلاد:

«رعية الملك حسين تطيعه وتخافه.

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه.

رعية الإمام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف.

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب، ولا تطيع إلا مكرهة.

فمن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحق أن يسود العرب؟».

لقد أعرت كتاب ملوك العرب هذا الاهتمام لأنه أول كتب أمين في الرحلات، ولأنه ملخص لما في كتاب تاريخ نجد الحديث، وفيصل الأول، وقلب العراق. وقد

قـرأتك، مـا قـاله أمين في وصف الملك فـيـصل، فـهـاك الان وصــفـه للسلطان عـبـد لعزيز: «هاقد قابلت أمراء العرب كلهم فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل. لست مجازفاً أو مبالغاً في ما أقول، فهو حقّاً كبير، كبير في مصافحته، وفي ابتسامته، وفي كـلامـه، وفي نظراته، وفي ضـربه الأرض بعـصـاه، إن الرجل فـيـه أكـبـر من السلطان، وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالألقاب... غريب عجيب، إلى أن قال: إني سعيد لأني زرت ابن سعود بعد أن زرتهم كلهم، هو حقّاً مسك الختام».

* * *

قال الأستاذ إسعاف النشاشيبي بعد الاطلاع على كتاب «فيصل الأول»:

«قال علي بن عبده الريحاني: حضرني ثلاثة تلاميذ فجرى لي كلام حسن، فقال أحدهم: حق هذا الكلام أن يكتب بالغوالي على خدود الغواني. وقال الآخر: بل حقه أن يكتب بأنامل الحور على النور. وقال الآخر: بل حقه أن يكتب بقلم الشكر في ورق النعم».

ووالله إن تلاميذ الإمام الريحاني إنما يصفون بأقوالهم هذه كلام فيلسوف الريحاني في فيصل.

قلب لبنان

كما خصصت كتاب ملوك العرب بتلخيص مطول كذلك فعلت في قلب لبنان، وما دعاني إلى هذا إلا أن الريحاني نحا فيه نحواً لم نره في كتب رحلاته الأخرى. فهو في هذا السفر النفيس شاعر أكثر منه مناضلاً. ولكنه في كل حال لم يخلع سيفه ورمحه.

يصح في كتاب (قلب لبنان) لفيلسوف الفريكة ما قاله ابن المقفع عن البلاغة، أي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يعمل مثلها. فكتاب قلب لبنان رحلات صغيرة في جبالنا هكذا يقول العنوان. أما ما وراء العناوين فلا يستطيع الناقد الإشارة إليه كله لأن الإحاطة به تقتضينا كتاباً أضخم منه.

فالاستطرادات والوخزات، والغمزات، والاستنتاجات تفاجئنا في كل رحلة. فهي تنهض من مكامنها في كل فصل بل في كل وجه، وأستطيع أن أقول في كل فقرة، لأن الريحاني لبق في غمز القناة، إنه يريد أن يعمل بقول الشاعر:

وكنت إذا غمزت قناة قوم
كسرت كعوبها أو تستقيما

ينقض أمين على المناسبة انقضاض الصقر على فريسته فإذا هي بين مخالبه وبراثنه. فما أقل من يستطيع أن يكتب فصولاً رائعة في مواضيع تافهة كهذه، ثم يحذبك إليها فلا تدع الكتاب، وهو ستمئة صفحة من القطع الكبير، حتى تقرأه من الجلد إلى الجلد.

وإننا نشكر العناية التي كان يؤمن بها أمين إيماناً مطلقاً ويتعبد لها بلا شروط ولا مراسيم معتادة، كما قلنا في كلامنا عن الريحانيات، بل قل طبقاً لمراسيم وضعها هو لنفسه، كان يصلي يومياً على بلاطة لا تزال على الشرفة حيث وضعها. قلت نشكر العناية ولم أقل على ماذا نشكرها عن أمين نشكرها لأنها أبقت بعده أخاً أديباً فاهماً يرعى بعين يقظى آثار أخيه الخالدة، ويصدرها للذرية وبالشكل اللائق بها. فالأستاذ ألبرت ريحاني شقيق الأمين هو الذي أهدى إلى المكتبة العربية هذه التحفة الطريفة في أدبنا الحاضر. فهذا الكتاب اليتيم ـ كما يسمي الغربيون الأثر الذي يظهر بعد موت صاحبه ـ شب في حجر وصي أمين، حي الضمير، فكان أحنى عليه من الأب. ولهذا اليتيم أخوة آخرون يدرجون في حجر الوصي ألبرت وسيؤتون حقوقهم، في حينها، كاملة غير منقوصة. فليطمئن قلب أمين، فكل ما خلف في حرز حتى قصاصات الورق وما خطت عليها يده من حواش ونظرات واحتجاجات.

إن كتاب «قلب لبنان» من طراز كتاب ملوك العرب، وفيصل الأول، وقلب العراق، وصف فيه أمين جبال لبنان ووهاده، أوديته وقراه ودساكره، صخوره وأشجاره، رجاله ونساءه، خواصه وعوامه، قلاعه ومعابده، قديسيه والمكارين فيه. ألم بتاريخ لبنان من أقصى ظلماته إلى عهدنا هذا، فحقق ودقق مخالفاً هذا، وموافقاً ذاك من سياح وأثريين، وعلماء وفلاسفة، لا يعنيه إلا أن يقول ما يعتقد أنه يحدثك بصراحة ووضوح عن كل شيء حتى نفسه، لا يكتمك من أسراره إلا ما لا يعنيك أو لا يفيدك. يسرد كل ذلك بلغته الهينة اللينة، ذات الموسيقى الشعرية. ولكنك لا تستسلم لموسيقاه حتى توقظك نكتته البارعة اللاذعة. يحملك على أجنحة خياله إلى الزمن الأبعد فيريك ذلك الزمان واضحاً بما يكسوه من الصور الجديدة الفتانة، فتحسب أنك تعيش فيه وأنك بين قومه الغابرين. يصور لك أم أمين، رحمها الله، كيف كانت تشيع ولدها الحبيب عند كل رحلة، فتحوطه برسم الصليب على وجهه، وعلى جسمه كله، ثم تسلمه أمانة للعذراء حبيبتها. ولا يحرم أمين مكاريه وبغلته التي اسمها (محبوبة) من وصف دقيق، وتصوير يبلغ التمام، ثم يقص عليك

ماكان يدور بينهما من حديث فيريك نباهة وبلاهة هذا المكاري الذي يتأمر حيناً ويطيع أحياناً.

يذكرني أمين في كثير من مواقفه في رحلاته بأحمد فارس الشدياق وكتابه الفارياق، فهما من طراز واحد في السرد وإن اختلفا في الاحتجاج. احتجاج الشدياق صاخب صارخ، رائحة أحماضه حريفة. واحتجاج أمين فولتيري ناعم، يمعن في النكاية كالشدياق ولكنه لا يستفز. قد رأيتهما يتفقان في أمور كثيرة حتى في الراهب (الأخ حنا) فلكل منهما راهب يسايره ويماشيه، ولكنهما يظلان مختلفين أسلوباً، ونكتة وظرفاً، فهما لونان مختلفان في أ دبنا العربي، وإن كتب كلاهما أشياء تخصه يدور عليها كتابه.

فكتاب «قلب لبنان» يعرفك، في معرض الحديث، على مؤلفه في لبنان فقط، يريك كيف نشأ أمين تلك النشأة القروية الساذجة، فكان لها أبعد أثر في تكوين شخصية أمين الإنسان. إن أمين الإنسان موضوع خطير يستحق اهتماماً كبيراً، وهذه الإنسانية قد ظهرت واضحة بارزة الخطوط صارخة الألوان في وصيته، كما ظهرت من قبل في جميع ما كتب. كان أمين نصيراً للحق في جميع مواقفه، يكره النفاق والكذب. والرياء والدجل؛ يخاطب الملوك والقادة بصراحه تدل على شخصية حرة تحترم الإنسانية في جميع البشر وتقدسها.

يتحدث أمين في «قلب لبنان» بقلم طليق من كل قيد فلا يحيد مقدار شعرة عن خطته المعلومة، يطري المكارم ويعالج المساوئ بالسخر منها والاستهزاء بها. وهو في كل ذلك لا يتنكب عن جادة العذر لمن يلوم، ولا ييأس من الصلاح والإصلاح.

وكتاب «قلب لبنان» معرض تاريخي لشعوب لبنان، والملوك والقواد والفاتحين والعلماء الذين جاؤوا لبنان غازين ومنقبين وباحثين، وهو يشارك جميع هؤلاء في نقد شخصياتهم وسياستهم وبحوثهم. فمن وصف فني إصلاحي، إلى تهكم لاذع إلى آراء فلسفية اجتماعية أدبية. يربط بالحاضر فبينا تراك معه في أعمق الأعماق إذا به يطير بك إلى أبعد الآفاق. ينقلك بلمحة خاطفة من أبعد أبعاد التاريخ إلى حيث نحن اليوم مستعيناً على ذلك بنفسيته وشاعريته وعلمه وثقافته الواسعة، ولا تعجب أن رأيت الريحاني في قلب لبنان مؤرخاً، وكما يكون التاريخ اليوم، فأمين كان ذا مواقيت لا يتخلف عنها ولا يتأخر، وهو ذو مكتبة ذات قيمة كبرى وخصوصاً فيما يعنيه من تاريخ الأمة العربية، فخزانته تحتوي على أصدق المراجع وأدقها في

هذا الموضوع، وإذا أضفت إلى ذلك سياحاته العديدة وملكته النقدية التي مكنته من تمحيص ما رأى وسمع. عرفت فيمَ كتب رحلاته، فهو لا يكتب فصولاً خيالية ليقول ما شاء وكيف شاء.

وإذا قلنا هذا فلا نعني أن تلك الكتب و «قلب لبنان» تاريخ جاف لا خيال فيه. لا يا سيدي، إن في «قلب لبنان» فصولاً من الشعر المنثور تعد من روائع الشعر المنظوم، وأمين كما علمت هو أبو هذا اللون من الكلام في أدبنا العربي، عبر به عن أفكاره حين كان رومنطيقيًّاً، صوفيًّاً، وهو لم يطلقه الثلاث حين أصبح كاتباً عاملاً يسعى في الأقطار العربية لتكوين الجامعة العربية التي لم تقر عينه بها حيًّاً، وإن ارتاحت إليها نفسه ميتا.

فإذا قرأت هذه القصائد المنثورة في قلب لبنان عرفت أن أميناً رومنطيقي بالمعنى الأتم يهب الحياة للصخور والأشجار والأودية، والحوادث التي لا تلهم شيئاً. إن هذه الحوادث تحيا وتتحرك تحت قلم أمين كما كان يحيا الحجر تحت إزميل ميكالنج، والقماش تحت ريشة رافايل. اسمع كيف يتحدث عن الضيافة اللبنانية، إنه يبدأ هكذا:

«قال فيكتور هيغو: الضيافة مفتاح الإخاء الإنساني، والشعوب المضيافة عماد الإنسانية، وقال كاتب إغريقي قديم: الحرية وحسن الضيافة هما عنوان العظمة في الشعوب.

فالشعب اللبناني العربي في عرف الإفرنسي الشهير هو عماد الإنسانية لأنه مضياف، ولكنه في عرف الكاتب الإغريقي لم يبلغ من العظمة إلا نصفها أو بعضها أي القسم القائم بحسن الضيافة. أما القسم الآخر، أي الحرية، فهو لا يزال مفتقراً إليه. هو لايزال ينشد الحرية ويتغنى بها ويسلي نفسه بخيالها وقصائد شعرائه فيها.

ليس أجمل من لبنان في جبال الأرض. وإن الله ليكلأ هذا الجمال، ويصونه في شكله كما في جوهره فلا خوف عليه في الحالين. أما الشعب اللبناني فمن يكلؤه يا ترى، ويصونه في حسن ضيافته؟ الحرية.

الضيافة مع الحرية تدوم. أما بدون الحرية فالشك في دوامها أقرب إلى الذهن منها اليقين».

وهنا أيضاً لم يدرك أمين ماكان يصبو إليه من استقلال وحرية للبنان. مات المجاهد في سبيل الحرية. ثم عاشت بعده، وهكذا يحيا الخالدون.

وبعد، فلم يمتعنا أمين في «قلب لبنان» بفصول رائعة من نقده الأدبي العذب كما فعل في ملوك العرب وقلب العراق. ولكنه انتقد (على الماشي) كما نقول، فلذع وتهكم. فإذا قيض لك أيها القارئ العزيز أن تقرأ هذا الكتاب فلا تظن أن الريحاني يكيل المدح للناس بالمد، أرجو منك أن تقرأ مابين السطور لتدرك ما يقول أمين، وما يقصد، وما يعني، ولا يغرك ظاهر الكلام. ثم لا تظنن أنني عرفتك بهذا الكتاب معرفة كاملة، فهذا لا يتم لك إلا إذا اطلعت عليه فتعرف الريحاني ومن شاء أن يعرفك بهم كما عرفهم هو ويريد أن تعرفهم أنت. ولا يليق بنا أن ندعوك إلى مأدبة أمين الحافلة بكل طريف شهي ثم لا نريك ولو لقمة صغيرة منها. فدونك يا عزيزي، هذا الصندويش، فنحن في عصر العجلة، وقل فينا من يشتري كتاباً يتمتع هو به ويبقيه لذريته من بعده. إذاً، هذه بعض نتف من شعر أمين المنثور، وإنني أذكرك بأن اللغة الشعرية منثورة في صفحات الكتاب كلها وقلما خلا وجه من معنى أو صورة شعريين طريفين، اسمع قليلاً من قصيدة الأرز:

«إيه ربة الأشجار، وسيدة الجبل الجبار.

أنت الرافعة أعلامك الخضراء، بين هذه الصخور الدكناء.

بنت الجديدين وأخت القمرين، حدثيني.

حدثيني وعلميني، وارفعيني إلى علياء إيمانك.

حدثيني عن ريح الشمال.

- تجيئني مولولة نائحة، فأوقفها لتستريح، فتستحيل أنفاساً عطرية.

- حدثيني عن الغيث إذا همى.

- هو يرقص على الصخور حولي، فتقهقه هازئة، ويضرب على أوتار قيثارتي فتسمعه أغاني البلابل والأمواج.

- حدثيني عن العواصف.

- هي تصعد هائجة من الأودية، وتهبط مجلجلة من الآفاق، فتدق حولي طبولها، فأفتح لها قلبي، فتدخل ثائرة، ثم تسكن وتنام، تحت أجنحة السلام.

- حدثيني عن الصخور.

- هي المحدثة قبلي وبعدي. منها تربي وإليها مصيري.

وهي في حياتي قرة عيني، وزينة نفسي، بل هي هيكلي الخالد، العامر اليوم بي، السائل غداً عني».

وعلى ذكر الصخور ننتقل بك إلى قطعة من هذا النشيد الخالد: نشيد الصخور، خبرنا أمين: أن أحدهم سأل جده المطران باسيل عبد الأحد: «ما فائدة الصخور؟ فأجابه فوراً: «الصخور عظام الأرض» وكأني بأمين نظم قصيدة للصخور إحياء لذكرى هذا الجد الأبعد، فاسمع كيف تدب الحياة في الصخور تحت قلم الشاعر الملهم، قال:

«والصخور؟

هل وقفت مرة بين الصخور، تتأمل تكوينها وأشكالها، ومعاني جمالها وجلالها.

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهدمة إلى ما وراء العمد والجدران ـ إلى روح الكيان ويد الزمان؟

هل في شموخها غير العز، وفي روعتها غير الصولة، وفي هولها غير الأخطار، وفي رسوخها غير القوة، وفي نخاريبها غير الضعف، وفي صفوفها غير الفوضى، وفي منعرجاتها غير الجهل والحيرة.

الصخور الشاهقة المحلقة، الصخور الرابضة والواثبة والهاوية، والصخور المانعة الواجمة المنذرة، الصخور المتكاتفة والمتخاذلة هل وقفت مرة تتأملها، وتحاول الدخول إلى قلبها، إلى السر المكنون فيها؟

إن في قلبها النواة التي كانت تموج تحت الأمواج، وفي قعور البحار.

إن في قلبها جرثومة الحياة الأزلية الأبدية.

إن في قلبها الذرة السرية التي تحيا بالتحطيم، فتغدو غذاء وشذى في الأشجار والأزهار.

إن في قلبها سجن الأنانية وضمت الأحزان.

إن في قلبها الرمز الخالد لسوط الزمان.

إن في قلبها رسالة التصعيد حتى في الجلاميد.

من قعور البحار إلى أعالي الجبال من الظلمات الموحلة المجرثمة المطحلبة، إلى أوج النور. والتبلور والصفاء.

هذه مرحلة الصخور بل ملحمتها.

وهل في شموخها غير العز والمجد؟ إن فيه ضرائح التضحيات، وأحاجي الموت والحياة.

وهل في روعتها غير الصولة والجلال؟ إن فيها الصبر القاتم، والعزم الواجم، والصمت الدائم.

وهل في هولها غير الأخطار؟ إن فيه نبأ البراكين والسعير، وقصة الزلازل والأعاصير.

وهل في نخاريبها غير الدليل على الضعف الواهن؟ إن فيها الدليل على عطف لا يزال في قلبها حياً، وعلى حنان لا يزال ندياً. إن في نخاريبها بيتاً للعصفور، ومأوى للحلزون، وإن فيها نايات للرياح.

وهل في صفوفها غير الفوضى؟ إن فيها تتمثل أوليات الحياة في التحرير والتقييد، وسنن الحياة في التنوع والتوحيد.

إلى أن يختم قصيدته هذه بقوله: هي الصخور الحافظة للأرز الأبواب، الضاربة حول الأرز الأطناب، الحاملة عرش الأرز على المناكب والرقاب».

وهنا يجب أن أقص عليك بإيجاز خبر تحول أمين من شاعر صوفي روحاني إلى كاتب وشاعر نضال جسداني. ساء الفيلسوف أن يظل الشرق غافياً، والناس يضجون حوله فثار على الشعر الباكي لا للحط من مقام شاعره الأمثل بل للنهوض بأمة كاد يقتل رجولتها ذاك الشعر المخنث.

كان أمين في فجره الأدبي يخاطب الدوري والغوري. ثم أفاق من تلك الغفوة الهانئة ليخطب الناس في سفح الأهرام، يوم كرموا جهاده، فقال شعراً منثوراً بلسان الشرق بدأه هكذا:

«أنا الشرق.

عندي فلسفات، وعندي أديان، فمن يبيعني بها طيارات»

هذا ما قاله منذ ثلث قرن، كما مر بك، وهانحن نرانا اليوم في أمس الحاجات إلى ما دعا إليه أمين وتمناه.

وإذا قرأت «قلب لبنان» ترى الريحاني لا يبرح دائرته تلك، فهو هو في عقيدته، تجدها أينما طلبتها. فأمين لم يبرح نقطة دائرة فكرته.

تأمل كيف يخرج النقد اللاذع حين يتحدث أثناء مروره بـ(المشنقة) حيث حفرت في صخرة صورة صراع أدونيس مع الخنزير البري، فقال يغمز قناة الانتداب: «أشعل غليونك، وافتح عيون خيالك. أحرق من تبغ هذا الزمان على ذكر أدونيس فتى الفتيان، أدونيس المعبود الأعلى، إله الحب والألم والبعث والخلود. وهل هناك مفر وانعتاق؟ هل يخلو الحب من ألم؟ وهل ينجو الألم من الموت؟ وهل يحرم الموت النعمة الكبرى: ـ البعث والخلود»

«فلو كان أدونيس متجسداً اليوم ومقيما في هذا الجبل اللبناني لرأى الخنزير البري في أسواق المدينة وفي دوائر الحكم. لا في الأودية والغابات، ولصرع في قتاله كما صرع الرؤساء والزعماء في هذه الأيام. على أن صرعة الإله لغير صرعة السياسيين، كهاناً كانوا أو تجاراً. ولا عجب. إن صرعة فيها شجاعة الإيمان والتضحية لتثمر روح التضحية والإيمان في أجيال من الناس. أما الصرعة التي فيها إرادة غاوية، ذات عين لاوية، يقاد صاحبها بدعوة إلى مأدبة، أو برشوة ووسام، فماذا تثمر يا رعاك الله».

وعلى ذكر كرونس إله الفينيقيين ذي الثماني أعين يقول أمين: «أما العيون فإن لنا منها، نحن اللبنانيين، أكثر مما كان لكرونس إله الفينيقيين. إن لنا من الخيال والأحلام والأوهام، مئة عين وعين فنرى الفراديس ونحن نائمون، وننام ونحن ماشون إلى الهاوية.... ».

إن الريحاني في «قلب لبنان» كاللاعب بالسيف والترس، يضرب ويتلقى بخفة ورشاقة مستعيناً بجميع مواهبه، ولم يسلم من لذعه شيء حتى أسماء الناس.

أعجبته ضيافة سابا بطرس أبريانوس وحرمته، وأعجبته كلمة (حرمة) وفضلها على زوجة وعقيلة وقرينة ومدام فقال: «ليس في (الحرمة) ما تشتم منه القيود. عقيلة الرجل - مصفدته قرينته. في الحرمة احترام ومحرم، وفي الحرمة عروبة صافية. ولكن اسم زوجها إبريانوس؟ ماذا تفعل به يا رجل؟ ومن أين جاء إبريانوس، إن هذا الاسم ليقتل كل أمل بالوحدة اللبنانية اليمانية. على أن هذا الرجل ذا الأسماء الثلاثة الفظيعة - سابا بطرس إبريانوس هو خير الرجال. يقري الضيف ويضرب بالسيف، ويبني بيته، مثل صنوه في (خولان)، ومثل إخوانه النسور بين الصخور..... إن الحياة لا تصفو لأحد من الناس، وإن صفت في نبعها فقد تتعكر في جرن العمادة»

إن ضجة أمين حول «سابا بطرس إبريانوس» لا أثر للكلفة فيها لأنه، رحمه الله، كان يكره هذه الأسماء الطائفية حتى التطير، وقد يكون هذا التأثر نجم في نفسه منذ نومته مع والدته، والغرزوزية الحسناء، في كنيسة كفيفان وفاء لنذر أمه التقية، فشفيع دير قديس كفيفان اسمه قبريانوس...

رحم الله من ربى الريحاني وربانا، فقد جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، ولولا المشيئة التي يحيرنا ممشاها لما جاء (قلب لبنان) كتاباً فريداً.

المغرب الأقصى

سار الريحاني من لبنان مهد الأساطير إلى الجزيرة سرير النبوة حيث درج وشب النبي العظيم، ثم فتح الدنيا دينه الجديد، ودانت لسلطانه وسلطان خلفائه أمم الأرض. وكأن الأمين الذي لم يتنكر قط لرسالته العربية أبى أن يحرم المغاربة منا مما جاد به على المشارقة، فشمر الأردان ومشى إلى المغرب الأقصى.

وعاد من ذلك الفردوس ليكتب عنه هذا الكتاب الضخم الحامل بين دفتيه تاريخاً قديماً وحديثاً. وكأنه خاف على كتابه من القراء الذين تعودوا أكل السندويش فقال في المقدمة يحذر قارئه:

«فلا يزال هذا الكاتب صديقك القديم يقول كلمته ويمشي، مشيت أنت معه أو وقفت وتخلفت، فهو لا ينتظر، وهو لا يتوقع من أحد الرفقاء ـ القراء ـ أن يماشيه حتى النهاية». وأخيراً ختم هذه المقدمة بما يأتي: «إن في المغرب طبخة يسمونها الحريرة، وهي شبيهة بالحساء، ولكنها تشتمل على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير، فيرسب الأكبر في قعرها، فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل في احتسائك إلى القعر ـ إلى النهاية.

فإلى قعر الحريرة ـ إلى النهاية».

حقاً إن كتب أمين لا تعطيك المتعة كاملة إلا إذا قرأتها برمتها. فآراؤه وضحكاته، وقرصاته ولسعاته تعثر بها أنى اتجهت في كتابه، ولكن (التاريخ) الذي لا يستطيع أن يهمله، في كتاب كهذا، قد يعرقل حركة السير. إنه شر لابد منه لمن يكتب مثل هذه الرحلات، ولكنك في قراءة مايكتبه أمين في التاريخ لا تجمد ولا تمل، لأن في خرج هذا (المغربي) الجديد عقاقير مختلفة، فهي كفيلة بتجديد نشاطك مهما تبلدت.

يتحدث أمين في الفصل الأول وعنوانه «من الاستقلال إلى الحماية» عن تطاحن الدول في المغرب الأقصى، ويتعرض أخيراً لسياسة القروض الهدامة لحرية الدولة فينقل كلمة المؤرخ جوليان: عندما وقع الباي وثيقة ذلك القرض حكم على تونس بالموت، «فهل يتعظ سلاطين المغرب؟ وهل يتعظ أمراء الشرق وملوك الغرب؟ وهل تتنبه الشعوب العربية؟».

ويعبر عن سياسة الانتهاز في هذا الفصل بقوله: هي سياسة المطرق والحديد الحامي. اضرب وعجل بالضرب.

وعـجل كـذلك بـالبـيـان، اطمـئناناً للمـضـروب، وإن كـان لا يحـسن الظن بالضارب....».

وإذا ماشيت الريحاني، ولم تتركه يمشي وحده، تحظى بتهكمه اللاذع كقوله، مثلاً، حين تكلم عن تسمية الأندلس: «فما هي (البنسولا) بلغة قحطان؟ يقول صاحب محيط المحيط، الناقل عن الفيروزآبادي والمكمل لأغلاطه، يقول بعد أن يحدد الجزيرة تحديداً صحيحاً: (وإذا أحاط (الماء) بها إلا من جهة واحدة قيل لها شبه جزيرة وبحيشجزيرة. فمن أين جاء المعلم بطرس بهذه البحيشجزيرة؟ إن كان المعلم بطرس ناقلها أو مخترعها، فهو يستحق أن يذكر في صلوات الأب أنسطاس الكرملي المحترم».

ويرى أمين مدينة (سبتة) فتستيقظ عروبته ويقول، ولكن هل نامت عروبته ساعة من العمر حتى نقول استيقظت! قال:

«كنت أتوقع أن أرى على شاطئ أفريقيا مدينة أفريقية عربية، فرأيت مدينة أوربية إسبانية في كل أحوالها ومظاهرها - فنبا القلب وخاب الأمل».

وأمين كما عرفت، من الكتاب القلائل الذين يجسدون في تصويرهم المرئيات حتى يخيل إليك أنك تراها، يصف لنا مناظر الأندلس الطبيعية بل كل مافي الأندلس من عمل الله والإنسان. رأى شيخاً يؤلف من الطين قطعة من الفسيفساء، فقال له أمين مشيراً إلى الرسوم أمامه: هذه؟

فأجابه فوراً: «منها القديم المقلد، ومنها الجديد المولد»

قالها بالعربية الفصحى فأعجب بنطقه أمين وقال: ولكن الأستاذ من المتعلمين وإن لعب بالطين...».

وهنا فليسمح لي صديقي أمين أن أذكره، أن (الأستاذ الأعظم) كان أول اللاعبين با لطين، فجاء في تماثيله عباقرة ومجانين....

ومما أعجبني من مبتكراته الكلامية في هذا الكتاب تعبيره عن ابتسامة دليله الصفراء: «فكانت لهجة دليلي مذهبة بابتسامة الرضى»، وقوله في مكان آخر: «أما المدينة فهي تفدي نفسها بالمال وأما الديمقراطية أختها بالسفاح، فإن لها مثل القطط سبعة أرواح، فلا خوف على الاثنتين ولا هما تحزنان»

ويحدثنا عن طريقة في سجن المجرمين من أطرف الطرق وخيرها وأحدثها، فكأن المجرمين فيها يعيشون أحراراً، ثم يخرجون رجالاً فاضلين مستغنين بالعمل عن الإجرام.

وفي معرض الكلام عن «العرب والبربر» يجدد أمين عهده للعروبة فيقول: «ووجهة نظرنا هي وطنية إنسانية، ووطنيتنا هي عربية قومية لا عربية إسلامية، فقد جهرنا بذلك مئة مرة ومرة، ولا ننفك نجهر به في كل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها، وأشواقها وآمالها إن كان في المشرق أم في المغرب. وإن لنا في الوطنية غرضاً أكبر فيها. ذلك الغرض ناشئ عن الحقيقة التاريخية الظاهرة الباهرة، وهي أن العرب عنصرهم من العناصر الإنسانية المتحضرة، العريقة في الحضارة الناشرة أعلامها في العالم. وإن لها مطالب قومية وأماني سياسية، لا تتجاوز حد تحقيقها إلا لتكون والأمم الأخرى على ولاء تام، وعاملة لتحقيق الإخاء الإنساني، والسّلم الدولي العام في العالم».

وقد كتب في «إشبيليه» فصلاً شعريًّاً كما فعل في قلب لبنان وغيره من كتب رحلاته.

ويتحدث عن الفن الأندلسي الإسباني حديث ناقد خبير ثاقب النظر، فيصف أدق أسراره، ويكشف للقارئ خبايا جماله، ويقول حين يتكلم عن النهضة العربية الثقافية الوطنية «إنها لا تزدهر ازدهاراً شاملاً إلا بعد أن يخرج الأجانب المسيطرون من البلاد العربية».

وبعد هذا يرسم للجنرال فرنكو صورة ناطقة مستخرجاً من ظاهره ما يدلك على باطنه. وقصارى القول في هذا الكتاب أنه طاووسي الشكل، فنصيحتي لمن يقرؤه - ويجب أن يقرأ - ألا يدعه قبل أن يأتي على آخره. فهو ينتقل فيه من فصل ممتع إلى فصل أمتع. وحسبك أن تقرأ فصل «الريسوني» لتوافقني في كل ما قلت.

ونبلغ فصل «بطولة الأولين» فنسمع كلمة خر صادق ما حابى طول حياته أحداً حتى أعز أحبابه وإخوانه، قال: «ليس في الفاتحين شعب يضاهي العرب اقتداراً وانتصاراً، وليس في المتقهقرين من يستطيع أن يشق غبارهم، سقطت قرطبة، فتعددت القرطبات الساقطات»

ويروي أشياء عن ثورة فرنكو يطيب لك أن تقرأ تفاصيلها الغريبة، وخصوصاً حكاية الجنرال مسكردو وولده التي تذكرك بجهاد العرب الأولين وتضحياتهم العظمى.

هذا ما حدثتك به هنا عن كتاب المغرب الأقصى، وقد مر بك أشياء عنه في مواضع متفرقة، إن التلخيص كماء الورد، أما قراءة الكتاب كاملاً ففيها ما يبهج الحواس جمعاء.

فإلى حديقة «المغرب الأقصى» يا صاحبي.

الريحاني الذي مات عن لا شيء من الثروة إلا ١٥ ليرة لبنانية في بنك إسكندر حداد، و١٢ مثلها في بنك دي روما، وخمس ذهبات في جيبه. و الريحاني الذي كان يقول لأخته سعدى حين يعطي السائل كل ما يملك: الكفن لا جيب له يا سعدى. هذا الريحاني قد عاد من رحلاته كلها ولم تكن يده السفلى أبداً، اللهم إلا بعض هدايا: سيف «ابن سعود» الخاص الذي حارب به ابن الرشيد، قرابه من ذهب ونصله يرجع تاريخه إلى الفتح الإسلامي في إيران.

وأهدى الشيخ خزعل إلى جلالة عبد العزيز سجادتين يوم كان الريحاني عنده، قال الملك: نحن سكان خيام، أعطوهما للأستاذ الريحاني ، اسم إحدى هاتين السجادتين شجرة الحياة، واسم الثانية الكرة الأرضية.

وهناك هدية ثالثة من الطويل العمر وهي فرس أصيلة مسماة نوره باسم شقيقته.

وأهدى إليه سلطان لحج صندوقة نحاس مزركشة، و«مداعة» طول نربيجها ١٨ قدماً.

وعرض عليه الملك حسين الألقاب والأوسمة فأبى، ولكنه قبل منه خنجراً - شريفاً - وقطعة من كسوة الكعبة، وهذه لم يحزها مسيحي.

وقد رأيت في البيت مسبحة مسيحية قيل إنها هدية من البابا لزوجة أمين، وقد حولتها تلك الزوجة إلى أم أمين، أما آثاره فركوة قهوة وغلايين، وريش، وضبوة وقليل من التبغ، وقلم حبر وقلشين وعصا، والساعة وبندها المشهور أي لقطتها التي كانت تتدلى على صدر أمين فيبدو بها كأحد رجالات فجر القرن التاسع عشر.

ورغم جهاد الريحاني ونضاله لم نفكر حتى الآن بتشييد ضريح له، وقد صنع المهاجرون تمثالاً له وأرسلوه إلى سورية لينصب في هذه الديار ولكنه ما زال نائماً نومة أهل الكهف.

رحم الله الريحاني الذي عاش ومات أميناً.

مائدتي

تحت هذا العنوان كتبت عدة رسائل إلى أصحابي ورفقائي الذين غادروا هذه الدنيا الباقية، فكان أولها هذا الكتاب، إلى الريحاني حين حالت (المراقبة) في (الحرب الثانية) دون الكتابة عنه.

أخي أمين.

يا سبحان الله، ماكنت أحسب أنك ستكون أول مدعو إلى مائدتي. وكأني أراك بعيني، وأسمعك بأذني تتساءل وتقول:

«وما مائدتك يا رجل»

ليست مائدتي أكلاً وشرباً، بل براً وسلاماً كملكوت الله. هي سفرة بلا ملاعق. أمدها في هذه الزاوية من «المكشوف» داعياً اليها الناس من بني وبني.... كثيراً ما أجلس المدعوين عليها، أما حضرتك فمدعو، اليوم للجلوس إليها، ويا ألف مرحباً.

كيف حالك اليوم، لا شك أنك عندك خير منك عندنا. السؤال بارد، والجواب صقيع وجليد، إياك والجواب.

دع هذا المنديل الأخضر المعصوبة به عيناي. إنه أشد التقاطاً لرسوم الأحلام والأماني من منديل فيرونيكا الفوتوغرافي. وما أظرف تلك الشياطين التي توسوس في صدورنا فنضحي بمنافعنا المحسوسة لتتحقق أمنية قد تكون أكذب من أخواتها وأبشع منهن.

مالنا والفلسفة، كيف حال من عندك؟ كيف أخونا جبران، وصاحبنا فليكس، وعمنا رشيد، ماذا أحدثوا بعدنا. أأنجز جبران صورة سلمى كرامه؟ هل انتصب فليكس خطيباً أمام الشيخ السرمدي. وهل التقى أبو أمين بأم القميص الزهر، أم تراه أنشد البطرك إلياس أحد أزجاله. هل غضب غضبته (الهاشمية) ساعة عوّقوك عن الدخول؟

أكان (أخوك فيصل) أول من اجتمعت به تحت زيتونة الجنة؟ يا الله!! كدنا ننسى أستاذنا الشميل.

كيف صحته، أيطبب يا ترى، أم يناقش توتنخمون في المذهب الداروينـي؟..

لا تقل ما هذه الرقاعة، أبهذا الكلام الفارغ، تودع أصحابك؟ غض النظر يا أمين. والله العظيم، نهضت للقيام بالواجب فوقع الطبق، وكبت الصحون، ياليت، تكسرت كلها.

يعز على الأوس بن تغلب ساعة يسل على السيف فيها وأسكت.

أنت «بعبع» يا أخي، قبل الموت وبعده، وإلا فكيف يخنق قلم يودع صديقه الراحل! إن تشييع المقضي عليهم بالصلب غير محرم.

تذكر كملة ذاك الوزير في الجاحظ: أثق بظرفه ولا أثق بدينه. أما أنا فوثقت بظرفك ودينك معاً. أثبت أنك ممن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فأبوا ذلك علي وعليك. أنت والله أشد إيماناً من ابن طيما. وحسبك أنك قلت: ليس في حقائق الوجود كلها أنصع من حقيقة البعث والخلود. «فيصل الأول ص ٢١٦»

أواه!! لولا تعطيني بعض هذا اليقين فأقول لصنين: «تعال إلى هنا فيجيء». صدقني يا أخي، إذا قلت لك: ما زلت كما فارقتني. مثل ذاك المطروح عند بركة «حسدا» ليس من يرميني فيها إذ يحركها الملاك، ولا من يصيح بي: احمل سريرك وامش، فما أنكد عيش المخلعين.

لا تسألني عن شيء، فحالي وحالك كبطرس كرامه مع أميره بشير حين أرسله رائداً فكتب إليه: الصندوق في اسطنبول والمفتاح في لندره. أما صرت روحاً خالدة فافهم عني واتركني إلى حين، إلى الساعة التي ينطلق فيها قلمي فيتجسد رأيي فيه كتاباً. إنك تاريخ حقبة مر فيها العقل الشرقي بأزمات حاولت أنت أن تفرجها، فمت ولما تستول على الأمد.

أما الآن فنحن سكوت والهوى يتكلم.

خضت المعارك لا تخشى من الرمد. دس براشة في شعرك المنثور إلى نسر قشعم جثم على قمم المنابر. وحلق بشمس الحقيقة بعينيه الاثنتين.

أوه، الحمد لذاكرتي لم أنس أن أقص عليك خبراً فرّحني جداً. خبرني صديق الطرفين الأستاذ خليل تقي الدين أنك (عدت) إلينا وقرأت في (المهد) عدد المكشوف الخاص هاشاً باشاً. أما ألف با، الأرواح فأنبأتنا أنك تائه في برية كالدهناء.... وفيما أنت تتكلم إذا بروح تطلع علينا طلوع صموئيل على عرافة عين دور، احزر روح من هي.

كان محدثنا الشميل، قال: أمين لم يصل بعد. الحبائل نصبت في طريقه. عدوّه خطراً على العرش، ولكن شفاعة أمه ستقضي على تلك الدسائس.

بحياتك يا حبيبي، جاوب عن كل هذا أوّل بأول، ليتك تتلفن فيرتاح بالنا. قد تكون تلك السقطة نستك بعض الأرقام. اطلب عاليه رقم - ١ - ٤٨ - تجدني منتظراً.

(سراً) حيرني، والله، ختام مكتوبي هذا، لا أدري كيف انتهى. ألك كيان فأقبلك، أو أكتفي بالتحية من بعيد...

أخوك مارون
عاليه ٣/١٢/١٩٤٠

الفهرس